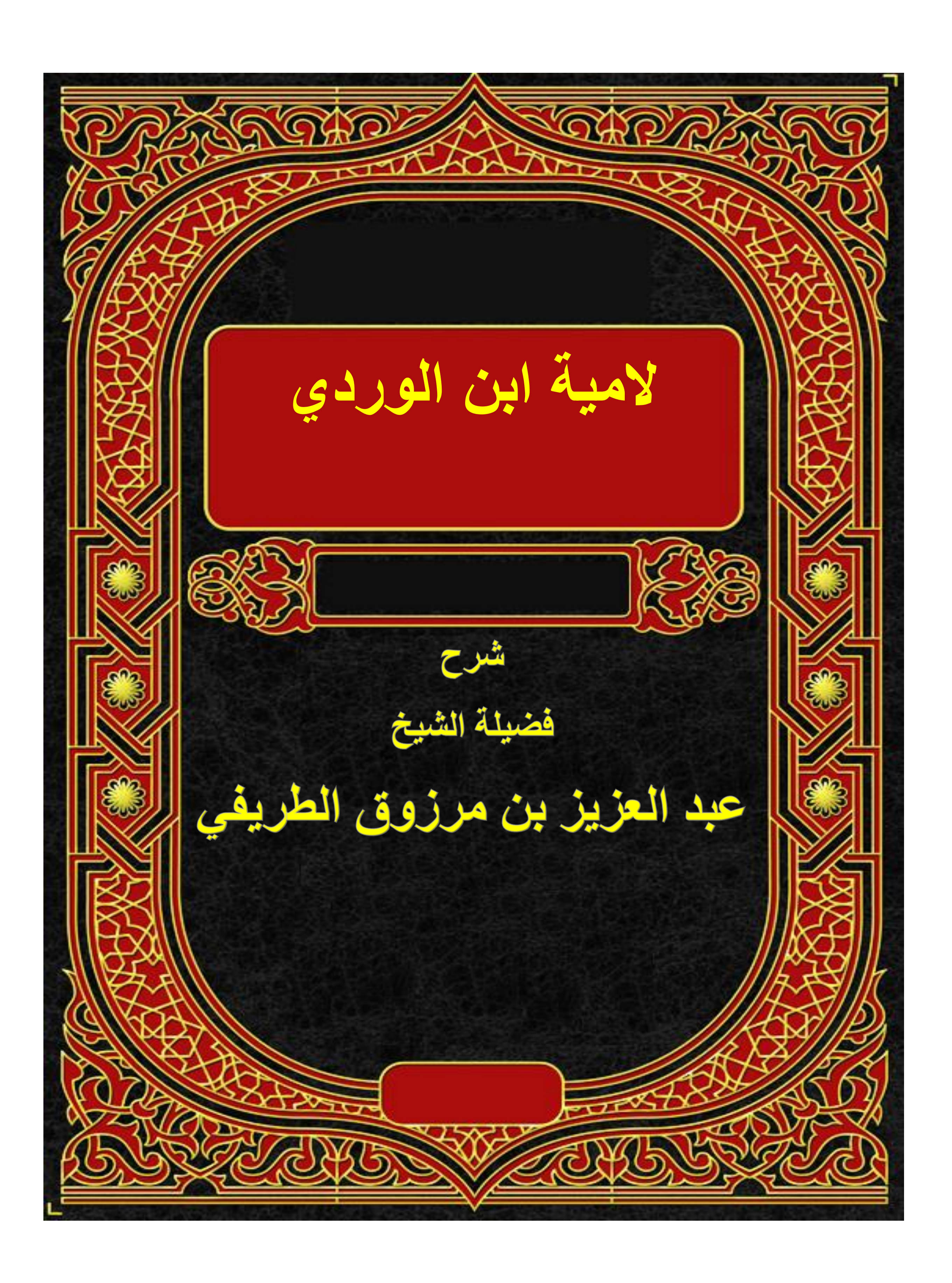

لامية ابن الوردي
شرح
فضيلة الشيخ
عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

تفريغ الدرس الأول

كتب الله عز وجل الموت على الخلق كلهم، فكل ما على هذه الأرض فانٍ، وقد فطر الله عز وجل الناس على تذكر أيام الصبا لذاتها وآلامها، ومن رحمته بهم أن جعلهم يتذكرون اللذات وينسون الآلام. والغناء واللهو والطرب محرم على الرجال والنساء إلا أنه يرخص للنساء بضرب الدف في الأعراس وغيرها من المناسبات، وعلى الإنسان أن يتقي مواطن المحرمات، ويأتي بالواجبات وما افترضه الله عليه.

معرفة الآداب في حياة المسلم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فهذه الرسالة تسمى بلامية ابن الوردي ، وهو عمر بن مظفر بن عمر بن أبي الفوارس بن الوردي ، من أئمة القرن السابع والقرن الثامن الهجري، حيث ولد عام ستمائة وتسعة وثمانين، وتوفي عام سبعمائة وتسعة وأربعين للهجرة.

وهذه اللامية هي نحو من سبعين بيتاً من الشعر، وقد تضمنت كثيراً من الآداب والسلوك التي حث عليها الشرع، وحثت عليها الفطر السوية؛ ولذلك جمع فيها المصنف كثيراً من الآداب.

وينبغي للعالم والمتعلم أن يظفر بالآداب ومعرفة دليلها من الشرع والطبع، فإن الله سبحانه وتعالى قد فطر الناس على فطر سليمة، مستقيمة سوية، تعرف الخير، وتنكر الشر، وقد جاءت الشريعة بما تعرفه النفوس فشرعته، وجاءت ببيان الشر فأنكرته؛ ولذلك قد يكون للنفس نزوات تخالف ما جاء في الشرع.

وسيأتي في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دلالة الناس إلى الخير وإرشادهم إليه، وقد وصف الله عز وجل هذه الأمة بالخيرية فقال سبحانه وتعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [آل عمران:110]، وهذا يكون لنزوات النفس التي تخالف الصراط المستقيم وتحيد عنه، وغالباً ما يكون هذا من النفوس التي تقر بالمخالفة، فمن يقع في السرقة أو في الزنا أو الكذب أو الغيبة أو النميمة أو غيرها من المحرمات هو مقر بذلك؛ لأنه يعلم أنه قد أتى شيئاً تنبذه النفوس، فإنه لا يرغب لنفسه أن يخدع وأن يسرق، وأن يكذب عليه، وأن ينمى أو يطعن في عرضه، وقد جاءت الشريعة بحماية العقل وحماية الدين وحماية النفس وحماية العرض وحماية المال، وهذه هي الضرورات الخمس التي جاءت الشريعة بحفظها.

غرض ابن الوردي من نظم هذه الأبيات

وقد أراد المصنف عليه رحمة الله تعالى في هذه المنظومة أن يدل على سبيل الحق في باب السلوك والتربية وتهذيب النفس ونحو ذلك، بعيداً عن الأحكام الشرعية في باب الحلال والحرام والفقه، وهذا باب يحتاجه الناس عامة، ويحتاجه الخاصة أيضاً؛ ليتبصروا بمواطن السلوك الحق، ودرجة سلوكه والحذر منه، وما تكرهه الطباع، وما لا تكرهه.

وقد جاء في الشرع باب الحلال وباب الحرام وباب المتشابهات، وجاء ما يسمى في الشرع بالمروءة، فإن النفس لها مروءة، وإن كان هذا الأمر لا يدخل في باب الحلال والحرام إلا أن النفوس مجبولة على موافقة ومحاكاة غيرها، وهذا معلوم بالضرورة، فإن النفس تحاكي الغير، وإذا شذ أحد الناس في المجتمع بسلوك أو فعل فإن من النفوس من تحاكيه، وإن لم ينكر عليه ويبين ما هو عليه من باطل فإن النفس تحاكيه، ثم يحاكيه الآخر، والمنكر والخطأ لا ينتشر في الناس إلا أن واحداً فعل أو قال، والآخر سكت على ذلك الفعل أو القول، فانتشر الفساد في الناس.

والمصنف عليه رحمة الله تعالى قصد إلى بيان التربية والسلوك والأخلاق الحميدة التي دلت عليها الشريعة ودلت عليها الفطر السليمة.

اعتزال الأغاني والغزل

قال المصنف رحمه الله:

[اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب من هزل]

قوله: (اعتزل) الاعتزال هو البعد والانفراد، وهي محمودة في مواطن كثيرة، منها حينما يختلط الخير بالشر، ولا يعرف الإنسان الخير من الشر إما لجهله وإما للفتنة العامة التي حلت بالناس ونحو ذلك.

ذكر العزلة في السنة النبوية

وقد امتدح الله عز وجل العزلة في كثير من المواطن، وكذلك رسوله ﷺ، وقد وصف النبي ﷺ من يأتي في أوائل صدر الإسلام، وفي نهاية الزمن بأنهم غرباء فقال: (طوبى للغرباء)، وقال مادحاً العزلة كما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد : (يوشك أن يأتي على الناس زمان يكون خير مال الرجل غنم يتتبع بها شعف الجبال)، وهذا يدل على أن العزلة محمودة في بعض الأحيان، إلا أن مخالطة الناس هي الأفضل، وفي ذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)؛ لأن مخالطة الناس فيها دلالة إلى خير، وحث على المعروف ورد عن الفساد والمنكر، ولو كان كل صاحب خير اعتزل لبقي في الناس الفساد وانتشر.

المواطن التي يحمد فيها الاعتزال

والعزلة ليست بمحمودة في العموم إلا في مواطن معدودة:

من هذه المواطن: أن يختلط الخير والشر على الإنسان، فلا يستطيع أن يميز خيراً أو شراً، فحينئذٍ يكون الاعتزال ممدوحاً، وقد صنف العلماء عليهم رحمة الله تعالى في هذه الباب مصنفات، وللإمام الآجري عليه رحمة الله كتاباً سماه (العزلة في بيان مواطن

العزلة المحمودة في الشرع)، والتي ينبغي على الإنسان أن يسلكها في حال من الأحوال، ولما وقعت الفتنة بين أصحاب رسول الله ﷺ، وعظم الخلاف كان هناك من أصحاب رسول الله ﷺ من فضل الاعتزال.

وقد جاء في صحيح الإمام مسلم من حديث مصعب بن سعد بن أبي وقاص أن أباه اعتزل الصحابة عليهم رضوان الله تعالى، وذهب ليعيش وحده خارج المدينة، حتى لامه في ذلك، فبين أن لديه أثراً عن رسول الله ﷺ في هذا، وقد جاء هذا عن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم أبي ذر و أبي الدرداء عليهم رضوان الله تعالى.

ومن المواطن التي يفضل ويستحب فيها الاعتزال: أن يكون الإنسان لا يطيق المنكر أن يراه إلا وقد وقع فيه، وهذا يكون عند النفوس الضعيفة التي لا تقاوم منكراً، ومعلوم أن الله عز وجل قد جعل في الدنيا من الفتن والبلاء والمغريات ما لا يستطيع الإنسان مقاومته، والله عز وجل قد جعل في نفس الإنسان وازعاً، وجعل له من الشرع وازعاً كذلك، فالوازعان اثنان: وازع الشرع ووازع الطبع، ووازع الشرع هي النصوص التي تحذره من الوقوع في المنكر، أما وازع الطبع فهو النفرة من ذلك المحرم الذي حذر الله عز وجل منه؛ لأنه يخالف فطر الناس السليمة.

وهذان الوازعان إن اجتمعا في قلب الإنسان فإنه يأطره على الحق أطراً، ويبعده عن مواطن الشر والفتنة، وإن ضعف الإنسان في هذين الجانبين فإنه يشرع له الاعتزال والبعد عن الناس.

الاعتزال المخصوص

وثم اعتزال مخصوص في حالة معينة، وهو اعتزال بعض الأفعال والمنكرات كاعتزال بعض المجالس التي يخاض فيها بالمحرم، كما نهى الله عز وجل عن مخالطة الذين يخوضون في آيات الله ويستهزئون بها، بل جعل الله عز وجل حكمهم كحكمهم: ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ﴾ [النساء:140]، أي: في باب الحكم؛ لأن الغالب أن من جلس مع شخص يخوض في آيات الله عز وجل استهزاءً أنه راضٍ بذلك، وإلا لما جلس في ذلك المجلس، إلا إن كان صاحب إنكار فينكر ذلك المنكر، وحينئذٍ يقال: إن الاعتزال في مثل هذه المواطن هو اعتزال مخصوص، واعتزاله لهذه المجالس هو اعتزال لذلك الفعل.

وقد يكون الاعتزال اعتزالاً لفرد، كما حث الشارع على البعد عن جلساء وخلطاء السوء، فحذر الشارع من مخالطة أصحاب الفساد وأصحاب المنكر، والنبي عليه الصلاة والسلام شبه صاحب السوء بنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك وإما أن يحذيك ريحاً سيئة.

وهذا النوع الذي أشار إليه المصنف عليه رحمة الله تعالى هنا هو من الاعتزال المخصوص.

المراد بالأغاني والغزل

وقوله: (ذكر الأغاني والغزل) الأغاني جمع غانية، وهي الجارية الفاتنة التي تصرف الإنسان عما يحتاج إليه في دينه ودنياه، فيكون

حينئذٍ قد اتبع شهوته، وما اتبع عقله، وهذا من الاعتزال المخصوص.

وأما الغزل فمراده بذلك الألفاظ التي يتغزل بها الإنسان بوصف مفاتن النساء والجواري؛ مما يجعل الإنسان من سقطة الناس، ولسانه بذيئاً لا يحمد.

أهمية صون اللسان وحفظه

والمصنف عليه رحمة الله تعالى أشار إلى هذا المعنى وهذا الباب؛ لكي يكمل للإنسان لسانه، ويظهر هنا أنه ابتدأ بصون اللسان، وهو من أعظم ما يوبق الإنسان أو يرفعه، ويقال في المثل: لسانك حصانك إن صنته صانك، وإن خنته خانك، وهذا معناه أن اللسان إما أن يرفعك وإما أن يضعك، وهو دليل على العقل، وتسمى الألسنة مغاريف، والعقول قدوراً، فهذه المغاريف تدل على ما في القدور، وإذا أراد الإنسان أن يغرف من قدر، فإن المغراف لا يخرج إلا ما في القدر، ولا يخرج شيئاً آخر، وإذا تكلم الرجل بلسانه بكلام بذيء دل على سوء عقله ونقصانه، وإن تكلم بخير دل على رجاحة عقله واتزانه، وهذا ظاهر ومعلوم عند الناس عامة شقيهم وسعيدهم.

اعتزال كتب الأغاني والغزل

وينبغي للمرء كما أنه يبتعد في هذا الباب، كذلك عليه أن يبتعد عن القراءة في مثل هذه المعاني، كقراءة الكتب التي تصنف في الغزل والأغاني، فيبتعد عنها كلها، وكل ذلك مذموم غير ممدوح في العقل والشرع، والإنسان إذا عدل النظر بالقراءة في المعاني السيئة في هذا الباب، فحينئذٍ يتشرب قلبه من تلك المعاني السيئة من حيث لا يشعر، ويجري ذلك على لسانه.

ولا زال الناس من أهل العلم والأدباء يصنفون في هذا الباب الغث والسمين، ومن هذا الباب مصنف صنفه
الإمام الأصفهاني عليه رحمة الله تعالى سماه الأغاني، قد ملأه بالفحش والبذاءة، وإن كان من كتب الأدب المشهورة المعروفة التي يثني عليها العلماء عليهم رحمة الله تعالى، فهو من باب قوة العبارة والأدب العالي الرفيع الذي يذكر أدب الجاهليين ومن جاء في صدر الإسلام لما فيه من معانٍ قوية وجميلة، لكنه صاحبه قد ملأه بالمجون والحكايات الباطلة التي يستحي الإنسان من ذكرها، وقد صنف أحد العلماء الهنود كتاباً سماه (السيف اليماني في نحر الأصفهاني صاحب الأغاني)، ذكر فيه ما يذم عليه في كتابه، وما وضعه فيه من لوثة بالألفاظ والحكايات والمعاني.

الاختصار في القول واعتزال من هزل

قوله: (وقل الفصل) أي: اختصر في القول، ومن المعلوم أن الإنسان كلما زاد في التفصيل وأكثر في الكلام وقع في الخطأ، وكلما اختصر في قوله قل خطأه وأصاب، وينبغي على الإنسان أن يختصر في قوله، وألا يسهب، فإن كثرة الكلام تدل على ورود الخطأ فيه، ومما ينسب لعلي بن أبي طالب عليه رضوان الله تعالى– ولا أعلم له إسناداً عنه– قال: خير الكلام ما قل ودل، ولم يطل فيمل.

أما الإسهاب في إيصال المعنى أو العبارة للمتلقي، أو الحديث بأمر ليس بمختصر، فيختصره الإنسان في عبارات يسيرة، فهذا مما هو مذموم؛ لأنه يوقع الإنسان في الخطأ.

وقوله: (وجانب من هزل) أي: ابتعد عنه، وهذا ضرب من ضروب العزلة، أن يعتزل الإنسان من وقع في الهزل، ولم يكن أمره أمر جد، والغالب على أمر المؤمن القوي أن يكون عازماً حازماً صادقاً لا هازلاً، والنبي عليه الصلاة والسلام ما كان هازلاً قط، نعم قد يمزح، لكنه لا يمزح إلا بحق، ولا يمازح أحداً من أصحابه إلا بصدق، أما كثرة الهزل فإن غلب على الإنسان فإنه يسقطه في أعين الناس.

تذكر أيام الصبا

قال المصنف رحمه الله:

[ودع الذكر لأيام الصبا فلأيام الصبا نجم أفل

إن أحلى عيشة قضيتها ذهبت لذاتها والإثم حل]

قوله: (ودع الذكرى لأيام الصبا) أي: لا تتحدث بما مضى، ولا تلهيك عن يومك، فالإنسان ابن يومه، ويجب عليه أن يستغل يومه فيما ينفعه.

وفي الصبا تمر على الإنسان أيام جميلة وحلاوة ذكرى، مما يرغب في ذكره والإكثار من ذكره، حتى يشغل الإنسان عما ينفعه في يومه وغده، وذلك أن صاحب التذكر للأيام الماضية والإكثار من ذلك مذموم حتى عند الناس؛ لأنه قد عطل نفسه، وأخذ يذكر إما مجداً له أو مجداً لأبيه ونحو ذلك، وهذا غير ممدوح، فالفتى من يقول: هأنذا، لا من يقول: كنت أو كان أبي.

فطرة الناس على تذكر أيام الصبا

وقد فطر الله عز وجل الناس وجعل فطرهم أنها تحب العودة إلى أيام الصبا وتلتذ بها، بل أنها تحب ما مضى ولو كان مراً، وهذا مجبول عليه الناس ومفطورون عليه، بل أنهم حينما يمرون على سوء في أيامهم يتذكرون حلاوة الماضي، ولا يتذكرون سوءه، ولا يتذكرون إلا الخير، وإن تذكر السوء تذكره بحلاوة وطراوة.

و عامر بن شراحيل الشعبي وهو من أئمة التابعين، وقد أدرك علي بن أبي طالب عليه رضوان الله تعالى يقول:

يا زماناً بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه

وهذا لا يدل على أن ما مضى حلو، ولا أن ما هو فيه فيه من المرارة ما فيه، لكن ما هو فيه من مرارة ونكد لا يستحضر إلا ذلك الفعل، أو تلك الحال التي هو فيها، وينسى ما مضى وإن كان مراً أو شديد المرارة.

وقد يمر على الإنسان من اللأواء والشدائد فيتمنى ما مضى وإن كانت أشد مرارة، لماذا؟ لأنها قد غابت عن ذهنه ولم يستحضرها، وهذا معلوم ومشاهد في أحوال الناس، فإن الناس يحبون الماضي وإن كان فيه قسوة وعدم راحة بال، ويريدون هرباً مما هم فيه فقط.

مثل من يتذكر الماضي

وقد ضرب الله عز وجل في كتابه العظيم أعظم مثال على أن الإنسان حينما يتمنى الماضي ويتذكره أنه لا يلتفت له؛ لأن الإنسان يعيش لحظته، ولا يدرك غيرها، والماضي مهما كانت مرارته فلا يخطر على بال الإنسان ما فيه من مرارة، وقد وصف الله عز وجل حال الكفار فقال: ((وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ)) أي: يوم القيامة وهم على شفير جهنم: ﴿ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:27]، فيتمنون أن يعودوا إلى هذه الدنيا، ونحن نريد على تمثل أن الإنسان ينسى، وإن عاين الشيء وعاين الخطورة ينسى ما رآه من هول ومصائب وكوارث، فقال الله عز وجل عنهم: ﴿ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام:28]، فبعد أن رأى النار يحطم بعضها بعضاً بكلاليبها وحرها، وما جعل الله عز وجل فيها من العذاب الأليم، رآه الإنسان عياناً، ثم يتمنى أن يعود للدنيا؛ لكي يعمل صالحاً، لكن الله عز وجل يقول: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام:28]، أي: أن الإنسان ينسى، فيعيش لحظته، والماضي لا يدركه كما يدرك الحقيقة، والإنسان هو عين اليقين، فثمة تكذيب، وثمة شك، وثمة ريبة، وثمة ظن، وثمة غلبة ظن وثمة يقين، وثمة عين اليقين وهو أعلى الدرجات، وهو أن يعاين الإنسان الحقيقة، ولا يوجد بعد هذا اليقين شيء، فإن عاينها، وإن كانت في أعلى درجات المرارة، ثم تجاوزها فإنه لا يتذكرها كما يتذكر غيرها، بل ربما لو شاكته شوكة لتمنى تلك الأيام؛ لأنه يعيش ذلك الألم فقط وينسى.

نسيان المصائب والآلام

وقد سمى الله عز وجل جماعة الناس أو الجماعة من الإنس ناساً؛ لنسيانهم، وهذه نعمة من الله سبحانه وتعالى على الإنسان أنه ينسى، ولو لم ينسَ الإنسان المصائب وما يحل فيه من بلاء وفتنة لما عاش الناس إلا مغمورين، ولكن الله عز وجل ينسي الإنسان مصائبه، وما حل فيها من فاقة وموت قريب ونحو ذلك، ولو استحضره في تلك اللحظة لتقطع قلبه كمداً، ولكن الله عز وجل رءوف بعباده، ولذلك المصنف عليه رحمة الله تعالى قال هنا: (دع) ما مضى؛ لأنه قد سطر عليك وانتهى.

إذاً قوله: (دع الذكرى لأيام الصبا) أي: لا تذكرها، وهنا يمثل فقط، فعليه أن يدع الذكرى لأيام الصبا التي لا تغني الإنسان، والإنسان ليس هنا ممنوعاً أن يذكر أيام صباه ويذكر أيام ما مضى من التاريخ، لكنه لا يشغل نفسه بحكايات الصبا ويتمناها، وهو ابن يومه ومخاطب ومحاسب على ذلك.

وقوله: (فلأيام الصبا نجم أفل) الأفول هو الانصرام، يقال: أفل النجم إذا غاب، وأفلت الشمس إذا غابت، وكذلك القمر، فنجم الصبا حينما يأفل انقضى وجف القلم به، فينبغي للإنسان أن ينشغل بيومه، ولا ينشغل بغير ذلك.

ذهاب اللذة وبقاء الإثم وشؤم المعصية

قال المصنف رحمه الله:

[إن أحلى عيشة قضيتها ذهبت لذاتها والإثم حل]

أي: أن الإنسان ينسى اللذة، والله عز وجل قد جعل الجنة محفوفة بالمكاره، والنار محفوفة بالشهوات، وهذا من موطن الفتنة والامتحان والاختبار.

والله عز وجل قد جعل الإنسان ينسى اللذة وينسى الألم، وهذا كله من رحمة الله سبحانه وتعالى، فالإنسان حينما يدع لذة من لذات الدنيا لأجل الله سبحانه وتعالى وجعله ينساها، فهو كمن أخذها وتمتع بهذه اللذة من الغد، جعلهم سيان في العقل والفكر، وقد جاء في الخبر: (يؤتى بأغنى أهل الدنيا وأنعمهم، فيغمس في النار غمسة من أهل النار، فيقال له: هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا يا رب. ويؤتى بأشد أهل الدنيا بأساً وأشقاهم من أهل الجنة، فيغمس في النار غمسة فيقال له: هل مر بك بؤس قط؟ فيقول: لا يا رب)، ولهذا الإنسان ينسى النعيم وينسى الجحيم الذي مر به، والمعصية لذتها وقتية، ولكن عقابها أمدي سرمدي إن كان من أهل النار، وإن كان من أهل الإيمان إن شاء الله عز وجل عذبه، ولكنها تبقى في قلب الإنسان حسرة في هذه الدنيا، وللمعصية ذنب وشؤم على قلب الإنسان، وغشاوة وران عليه حتى يغلب ذلك عليه، ويكون من أهل المعصية وأهل الذنوب، بل ربما كان من أهل النار قطعاً إن ارتكب شيئاً يكفره ويخرجه من دائرة الإسلام.

والذي يريده المصنف عليه رحمة الله تعالى هنا أن الإنسان مهما تمتع بالحرام واستلذ به إلا أن تلك النعمة تزول بلحظتها، ويبقى شؤمها في قلب الإنسان، وعاقبتها يحاسب عليها الإنسان يوم القيامة، والدنيا دار امتحان واختبار، وقد فطر الله عز وجل قلب الإنسان على ملذات، ومنعه منها، وفطره على تتبع بعض الأمور ومنعه منها، والإنسان يكره الكلفة والمشقة، وقد سمى الله عز وجل الأوامر الشرعية تكاليف، قال سبحانه وتعالى: ﴿ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة:286]، فسماها تكاليف، لكنها بالوسع، أما إذا خرجت عن طاقة الإنسان ووسعه، فالله عز وجل لا يكلف نفساً إلا وسعها.

عدم إدراك الإنسان للحكمة من بعض التشريعات

والله عز وجل اختبر الإنسان بما حف بالجنة من مكاره، واختبره بما حف بالنار من شهوات، فالإنسان يسعى إلى شهواته ونزواته، ويريدها ويريد تحصيلها، والله عز وجل قد منعه من ذلك، وفتح له باب عوض، فحرم عليه الزنا، وأباح له النكاح، وحرم عليه أكل الربا، وأحل له البيع، فما من شيء يحرمه الله عز وجل إلا ويفتح للإنسان باباً آخر، لكن قد يفتح باباً من أبوب الشر،

ويكون ذلك الباب أوسع من الخير امتحاناً وفتنة للناس.

لكن قد يقول قائل: ولم؟

يقال: لحكمة بالغة، فالإنسان لا يسعى لمعرفة الحكم، وإن كان لا يؤمن إلا بحكمة فهذا ضرب من ضروب الاعتزال، وهذا الموطن هو الفيصل بين أهل الإيمان وأهل الكفر، ومن ذلك لماذا كفر كفار قريش، وألحدوا بدين مُحَمَّد ﷺ؟ ومالوا عن الحق وعن جادته إلى طريق الغواية والضلال؟ لأنهم ما رأوا الحكمة والبينة، وقد خاطبهم بعقولهم، قالوا: ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [البقرة:275]، فما علموا الحكمة الشرعية التي حرم الله عز وجل لأجلها الربا، وأحل الله عز وجل البيع.

والله عز وجل يحرم المحرمات ويبين الواجبات، ولكنه لا يبين الحكمة من ذلك التشريع في كل حين، ولو بانت الحكمة كالشمس لكل الناس لما ضل عن الشريعة إلا المجانين، ولكن الله عز وجل بين الحكمة لبعض الأحكام الشرعية، ولما يعرف حكمته فإن الإنسان يزداد بذلك إيماناً ويقيناً.

والله عز وجل قد أيد مُحَمَّداً ﷺ ببعض المعجزات والخوارق، وبعض الحكم البينة التي يعجز الإنسان عن إدراكها وكنهها ومعرفة حالها؛ لكي يأخذ الإنسان منها وعمن غاب، أما من يتتبع جميع الأحكام ويريد لكل حكم علة فهذا يطلب محالاً، وهذا ضرب من ضروب الاعتزال، ويسعى بالإنسان إلى الإلحاد والخروج من الملة والعياذ بالله.

ومن رغب أو طمع في أنه يعرف لكل حكم شرعي حكمة أو علة لأجلها جاء هذا، فهذا من الخطر، وهذه بداية طريق الاعتزال، ولذلك ضل الكفار بتتبعهم للحكم، والله عز وجل ما جعل الإنسان بهيمة تنقاد، ولكن جعل له عقلاً يميزه أن الله عز وجل حرم هذا الأمر لتلك العلة، وأمر بهذا الأمر وهذا التكليف لتلك الحكمة البالغة، وأمر بذلك الأمر وغيب الحكمة، ونهى عن ذلك المحرم، وغيب الحكمة ليأخذ من هذا إلى هذا، فيزداد بذلك بصيرة، والإنسان إذا بان له في أمر واحد أمر الله عز وجل به حكمة بالغة عظيمة لا يمكن أن تصدر من بشر، فإنه يجريه على ما يأتي، والله عز وجل أيد مُحَمَّداً ﷺ بالمعجزات، وأيد أولياءه بالكرامات.

والإنسان إن آمن بالإطلاق فإن يؤمن بكل شيء وإن لم يدرك حقيقته، بل وإن كان يرى خلافه، أو لم يتبصر بتلك العلة أو الحكمة، أو وقع في قلبه شيء من عدم الرؤية بالظاهر، لكنه يؤمن بذلك حقيقة، ولذلك أبو بكر الصديقإنما بلغ درجة الصديقية؛ لأنه أطلق باب التصديق بمحمد ﷺ فيما يخبر به من غير نظر لعلة أو حكمة، ولذلك كان صديقاً عليه رضوان الله تعالى من هذا الباب، فلما قال له كفار قريش: (إن صاحبك يزعم أنه أسري به إلى بيت المقدس، قال: والله لو قيل لي أنه عرج به إلى السماء لصدقته)، وهذا يدل على التصديق المطلق، والتسليم لله سبحانه وتعالى.

وكذلك عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى لما أرسله النبي عليه الصلاة والسلام يتتبع المرأة التي معها الرسالة إلى كفار قريش من أهل مكة، فلما أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يغزوهم –كما ذكر ابن إسحاق في السير – قال: تبعها، فجاءها ولم يجد معها شيئاً، وقال: (والله لا يكذب رسول الله ﷺ، فقال: أخرجيها وإلا عريتك، فأخرجتها من ضفائرها)، كما جاء في الرواية؛ لأنه

قطعاً النبي عليه الصلاة والسلام لا يكذب، وهذا تسليم مطلق، ولا يقع في قلبه ريب أو شك.

وقد ذكر النسائي عليه رحمة الله في السنن وابن إسحاق في السير بإسناد لا بأس به (أن النبي عليه الصلاة والسلام كان في ليلة من الليالي جالساً مع عائشة عليها رضوان الله تعالى، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: كيف بإحداكن..)، أي: أصحاب الحجر، ومعلوم أن أزواج النبي عليه الصلاة والسلام في حجرات، يعني: حجرات متجاورة، ولا تفتح حجرة منهن على مسجد رسول الله ﷺ إلا حجرة عائشة ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (كيف بإحداكن إذا نبحت عليها كلاب الحوأب)، والحوأب بلدة على طريق الذهاب إلى العراق، وكانت عائشة في المدينة فقالت: (يا رسول الله! كيف بنا وما يذهبنا إلى هناك؟ قال النبي عليه الصلاة والسلام: ما أظنه إلا أنت يا حميراء).

وتوفي النبي عليه الصلاة والسلام، وجاءت خلافة أبو بكر وانقضت، وجاءت خلافة عمر وانقضت، وجاءت
خلافة عثمان وانقضت، وجاءت خلافة علي بن أبي طالب عليه رضوان الله تعالى، وجاءت عائشة عليها رضوان الله تعالى، وجاء أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وقالوا لها: وقعت فتنة بين أصحاب رسول الله ﷺ، فحثوها على الخروج إلى العراق إلى الكوفة، فلا زالوا بها حتى ركبت الناقة، وعلى تلك الناقة، وسميت واقعة الجمل، فركبت الناقة، وفي طريقها لما أقبلت إلى العراق سمعت نباح كلاب في ليلة من الليالي، فقالت: ما هذه البلدة؟ قالوا: الحوأب، فتذكرت كلام النبي عليه الصلاة والسلام من عقود فبكت، ولا يعلم من حولها بكلام النبي عليه الصلاة والسلام، ولا يعلمون ما بها، فسقطت حتى حملت مرة أخرى، فتذكرت قول النبي عليه الصلاة والسلام: (كيف بإحداكن إذا نبحت على إحداكن كلاب الحوأب؟! قالت: ومن الذي يذهب بنا يا رسول الله؟ قال: ما أظنه إلا أنت يا حميراء)، وهذا إنما غاب عن عائشة عليها رضوان الله تعالى، لا لأنها قد وقع فيها ريب أو شك من ذلك، لكنها قد استغربت الحال وصدقت بيقين، وغاب عن قلبها استحضار ذلك عند حال الحدوث.

والله عز وجل قد أيد نبيه عليه الصلاة والسلام بالمعجزات وبالإخبار بأمر الغيب، وجعل أصحابه عليهم رضوان الله تعالى بتلك المنزلة الرفيعة والتسليم المطلق؛ لأنهم ما بحثوا عن علة، بل جزموا يقيناً بأن هذا الرجل الذي صدق في تلك الأمور وبانت العلة والحكمة سيصدق قطعاً في تلك الأمور.

والنبي عليه الصلاة والسلام لما أخبر عمر بن الخطاب وقال له: (يأتي وفد اليمن ومعهم رجل اسمه أويس ، فإن لقيته فاستأمره أن يستغفر لك، فإنه رجل كان باراً بأمه)، فلما جاء وفد اليمن في خلافة عمر ، ذهب عمر بن الخطابعليه رضوان الله تعالى يسأل وفد اليمن: (أفيكم رجل اسمه أويس ؟) وكانت العرب لا تحتك بالرعاة، ولا تتحدث معهم أنفة وكبراً، بل ربما لا يعرفون أسماءهم، (فقالوا: ليس معنا رجل اسمه أويس ، فقال: والله لا يكذب رسول الله ﷺ، فأخذ يتتبعهم واحداً واحداً، حتى قال: هل بقي منكم أحد؟ قالوا: بقي رعاة الإبل، فذهب إليهم، فلقي أحد الرعاة اسمه أويس ، فبكى عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى وقال: النبي عليه الصلاة والسلام قال لي كذا وكذا، وأمرني أن تستغفر لي ثم دعا له أويس القرني عليه رضوان الله تعالى.

وغير ذلك مما يدل على التسليم المطلق؛ لأنهم ما نظروا وما التمسوا علة إلى الحكم الشرعي والخبر.

وما يذكره المصنف عليه رحمة الله تعالى في هذه الرسالة هي من المسلمات التي فطر الإنسان عليها في سائر الشرائع، من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وما لا ينسخ من التشريعات هي ثلاثة أمور: العقائد، والأخبار، والأخلاق، والمصنف عليه رحمة الله أراد أن يبين في رسالته هذه الأخلاق، والأخلاق لا تنسخ، فالكذب محرم وخيانة في أي شريعة كانت، وكذلك الغيبة والنميمة، أما إكرام الضيف فهو من حسن الخلق في أي شريعة كانت، ولا يكون في شريعة ليس من حسن الخلق، وفي الشريعة الأخرى من حسن الخلق، ولكنه من حسن الخلق ومن مكارمه على سائر الشرائع.

ومكارم الأخلاق يقال: إنها شريعة الله عز وجل باقية، وتتفق الشرائع كلها على الأخلاق والعقائد، وتختلف في التشريعات، أي: في الحلال والحرام في بعض الأحوال.

الابتعاد عن آلات الطرب واللهو

قال المصنف رحمه الله:

[واترك الغادة لا تحفل بها تمس في عز وترفع وتجل

واله عن آلة لهو أطربت وعن الأمرد مرتج الكفل]

قوله: (واترك الغادة لا تحفل بها) الغادة هي الجارية التي تفتن في مشيتها (تمس في عز وترفع وتجل).

وقوله: (واله عن آلة لهو أطربت) أي: انشغل عنها، ولا تشغلك. والمراد بها ما يطرب من الغناء، من الدفوف والآلات والموسيقى واللهو والطرب، وقد نهى الله عز وجل عنها، وسماها الله سبحانه وتعالى لهو الحديث، وكانت العرب حتى في الجاهلية تجعل الغناء والطرب للنساء لا للرجال؛ لأنهم يأنفون منه، ويجعلونه من خوارم المروءة.

حكم الغناء والطرب وما يرخص فيه من الآلات

والغناء واللهو والطرب محرم على الرجال والنساء إلا أنه يرخص للنساء بضرب الدف، ويرخص للرجال في الأعراس، والنبي ﷺ كما في صحيح البخاري قد ضربت على رأسه جاريتان بالدف، فدخل أبو بكر و عمر فقال: (أمغنيتان على رأس رسول الله ﷺ؟! فقال النبي ﷺ: ليستا بمغنيتين)، وجاء في مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود : (أن امرأة جاءت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقالت له: إني نذرت إن أرجعك الله أن أضرب على رأسك بالدف، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: أوفي بنذرك)،

وقال النبي عليه الصلاة والسلام: (لا وفاء لنذر في معصية الله)، ولو كان في الضرب بالدف معصية في مثل هذه الحال لنهى النبي عليه الصلاة والسلام عنه.

وإذا دعي الإنسان إلى عرس وفيه ضرب بالدف، والدف خاصة، وليست طبولاً وآلات لهو وموسيقى، كالمزمار والعود والطبلة ونحو ذلك، فهذه محرمة في كل حال للرجال والنساء، ويستثنى الدف في المناسبات والأفراح وعند قدوم المسافر ونحو ذلك، فإنه يرخص في هذا، وقد سئل الإمام مالك عليه رحمة الله تعالى عن رجل يدعى إلى وليمة وفيها ضرب بالدف أيرجع أم لا؟ فقال: لا يرجع.

وآلات اللهو والطرب تسمى بالأغاني والموسيقى، وهي محرمة باتفاق الأئمة الأربعة، وعلى هذا عامة السلف.

توجيه ما ورد تسميته بالغناء في بعض الآثار

وما يسمى بالغناء كما ورد في بعض الآثار تسميته بالغناء أو فلان غنى أو في مجلسه ونحو ذلك، فإنهم يريدون به التغني، والتغني يكون بالعبارة والإطراب بها وتحسين الصوت، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)، والمراد بالتغني هنا تحسين الصوت، وقد يشكل على البعض بعض الآثار التي جاءت بذكر الغناء، وأن فلان غنى، وأخذ يتغنى ونحو ذلك، والمراد به هو تحسين الصوت، وهذا معلوم في لغة العرب.

أما آلات اللهو والطرب فإنها تحرم بالإطلاق على الرجال والنساء، ولذلك سماها الله تعالى: لهو الحديث، كما قال عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى: (والله الذي لا إله إلا هو إنه الغناء).

التفريق بين السماع والاستماع للغناء والطرب

وقوله هنا: (لهو أطربت) هل المقصود من آلة اللهو الإطراب؟ فإذا كان الإنسان لا يطرب من آلة اللهو يجوز أن يستمع إليها؟ بمعنى: هل هناك فرق بين السماع والاستماع؟

فرق بعض السلف في هذا، وقالوا: فرق بين السماع والاستماع، فما كان مطرباً يحرم، وما لم يكن مطرباً فلا يحرم، وعلى هذا قالوا: ما أطرب وإن كان من غير آلة لهو فيحرم، وهذا فيه ما فيه، والنبي عليه الصلاة والسلام قال لأنجشة لما كان مرتحلاً: (رويداً يا أنجشة ، لا تكسر القوارير)، والمراد بالقوارير النساء، أي: لا تفتنهن بصوتك الذي أطربت به، وقوله: (رويداً) أي: اسكن قليلاً، فلم يأمره بالسكوت التام والصمت، وهذا يدل على الجواز إذا خلا من آلة طرب ولهو.

وعلى هذا إذا استمع الإنسان أو سمع الإنسان شيئاً من آلات اللهو التي لا تطرب أصلاً، كأن يكون في طريق أو مجلس ونحو ذلك، ولكنه لم يستمع، إنما تجري إلى مسامعه من غير إنصات، فهذا لا حرج على الإنسان فيه، فقد يبلى الإنسان في شارع ونحو ذلك، ولا يؤاخذ الله عز وجل الإنسان لأنه لم يستمع، ولكنه ينفذ إلى مسامعه من غير اختياره.

وقد ذهب جماعة من العلماء وعلى رأسهم الإمام ابن رجب عليه رحمة الله إلى التفريق بين السماع والاستماع، وقال: إن ما أنصت فيه الإنسان وأراد تدبراً وإطراباً فإنه ينهى عنه، أما ما ينفذ إلى مسامع الإنسان من غير قصد حتى وإن كان بآلات لهو وطرب فإنه لا يؤاخذ عليه الإنسان شريطة إلا يصغي له بالسماع.

مخالطة الأمرد

قال المصنف رحمه الله:

[.. وعن الأمرد مرتج الكفل

إن تبدى تنكسف شمس الضحى وإذا ما ماس يزري بالأسل

زاد إن قسناه بالبدر سنى أو عدلناه بغصن فاعتدل

وافتكر في منتهى حسن الذي أنت تهواه تجد أمراً جلل]

مفاسد الاختلاط بالأمرد

قوله: (وعن الأمرد مرتج الكفل) الأمرد هو من لا ينبت له شعر في وجهه، وأطلق الأمرد هكذا؛ لأنه قد يفتن به البعض، وحث المصنف عليه رحمة الله تعالى على اجتناب مخالطته، فإنه لا يخلو الإنسان من مفسدتين:

الأولى: إما أن يفتن به، وذلك أن فيه شبهاً من النساء.

الثانية: أن يتهم به، وكلا الأمرين محظور شرعاً، ولذلك يقول عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى: (من أتى مواطن التهمة فلا يلومن إلا نفسه)، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو من هو، لما خرج من معتكفه ليوصل صفية عليها رضوان الله تعالى ليلاً، ورآه بعض أصحابه خارجاً ومعه امرأة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: (إنها صفية)، خشية أن يقع في قلب الإنسان شيء من التهمة ونحو ذلك، والنبي عليه الصلاة والسلام أراد بذلك تشريعاً لا أنهم يسيئون الظن به، والنبي عليه الصلاة والسلام قد ربى أصحابه على ذلك.

وعلى كل حال فمخالطة الأمرد الذي يظن به تهمة موطن من مواطن الشبه التي ينبغي للإنسان أن يجتنبها.

بعض مفاتن الأمرد

المصنف أراد بالأمرد الذي يتغنج، ولذلك قال: (مرتج الكفل) أي: الذي يرتج في مشيته يمنة ويسرة، وفيه تشبه بتغنج النساء

ونحو ذلك، وهؤلاء يسمون بالمخنثين، الذين هم رجال لكنهم يتشبهون بالمشية بالنساء.

قوله: (إن تبدى تنكسف شمس الضحى) أي: من حسنه، وهنا قيد الأمرد بمن كان حسن المطلع، فإنه أدعى للافتتان به، وذلك لوضاءة وجهه، والإنسان لا يشعر بما هو فيه من ألم.

وقوله: (إذا ما ماس يزري بالأسل) أي: وإن كان على سنان الأرماح، فلا يشعر الإنسان بذلك؛ لأنه قد متع ناظريه بالنظر إلى ما يصرفه عن الألم.

قوله: (زاد إن قسناه بالبدر سنى) أي: إن ضوءه ونور وجهه أشد من نور البدر، ومعلوم أن البدر لا يسمى بدراً إلا وقد اكتمل.

وقوله: (أو عدلناه بغصن فاعتدل) وذلك لحسن قامته وجمال هيئته.

علاج النظر للأمرد

وقوله: (وافتكر في منتهى حسن الذي أنت تهواه تجد أمراً جلل) وذلك أن الإنسان يتفكر بالعاقبة التي سيئول إليها ذلك الجمال، سواءً كان جمال رجل أو امرأة، وهو التراب، وأنه ستأكله الدود، ومآله إلى هذا، وعاقبته إليه، فإنه إن ذكر بذلك الأمر فإنه يعلم أنه علق قلبه بمفقود ومآله إلى زوال، ولذلك قالت امرأة أحد الخلفاء، وقيل: إنه هارون الرشيد ، وقد نظرت إليه: إنك أنت النعيم، إلا أنك تزول، فبكى عليه رحمة الله.

هجر الخمر واجتنابها

قال المصنف رحمه الله:

[واهجر الخمرة إن كنت فتى كيف يسعى في جنون من عقل]

الخمرة: هي ما خامر العقل وغطاه، والخمر محرمة بالاتفاق، ولا خلاف في ذلك، فهي محرمة بالكتاب والسنة والإجماع، ومن قال بإباحتها فقد كفر؛ لتكذيبه نصوص الكتاب والسنة.

وهنا قال: (واهجر الخمرة) لأن الإنسان لا يليق بكامل عقله أن يشرب الخمر، فإن الله عز وجل قد وهبه عقلاً، ثم يزيله عن قصد وعمد.

وقوله: (كيف يسعى في جنون من عقل) أي: أن يكون حاله كحال المجانين الذين سلبهم الله عز وجل عقلاً، مع أن الله سبحانه وتعالى قد أنعم عليه بذلك، والإنسان حينما يجن أو يختلس عقله يذهب به أهله إلى أقاصي الدنيا لعلاج عقله، لعله يشفى، وهذا يسعى إلى جنون عقله، فهذا لا يليق بعاقل، بل هو منقصة ومذمة.

الوصية بتقوى الله

قال المصنف رحمه الله:

[واتق الله فتقوى الله ما جاورت قلب امرئ إلا وصل

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل]

هنا يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام للثقفي عليه رضوان الله تعالى لما قال للنبي عليه الصلاة والسلام كما في صحيح مسلم : (قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك، قال: قل: آمنت بالله فاستقم)، ومعنى ذلك أن الإنسان قد يصل إلى الحق، ويصل إلى الصواب، وهذا كثر، ولكن الاستقامة على ذلك والصبر عليه حتى يصل الإنسان هذا هو موطن الصعوبة.

وقوله: (ما جاورت قلب امرئ إلا وصل) أي: لا بد أن تجاور التقوى قلب الإنسان حتى يصل وينجو من عذاب الله سبحانه وتعالى، ويختم له بخير.

المقصود بالتقوى

المراد بالتقوى أن يتقي الإنسان مواطن المحرمات، ويأتي الواجبات وما افترضه الله سبحانه وتعالى عليه، والإنسان حينما يمشي في صحراء حافٍ فإنه يتقي مواطن الشوك برجليه، ولذلك أبي بن كعب عليه رضوان الله تعالى لما سئل عن التقوى قال: (أرأيت إذا مشيت في وادٍ ذي شوك، ماذا تصنع؟ قال: أشمر عن مئزري، وأنظر إلى مواضع قدمي، قال: فتلك التقوى)، أي: أن تتجنب المحرمات وتحترس فيها.

وغاية التقوى هي أن يجتنب الإنسان ما شبه عليه من الحلال والحرام، فيغلب جانب الخوف، ولذلك (ما لازمت التقوى قلب امرئ وجاورته إلا وصل إلى الجنة)، فليحذر الإنسان من التسويف والتفريط ولو في لحظة، فإنه قد يختم له بسوء، فيكون والعياذ بالله من أهل النار، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى يكون ما بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها)، فهذا لم يبقَ بينه وبينها إلا ذراع، أي: أنه بقي من أجله وقت يسير كيومين أو أقل من ذلك، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، ولذلك لا يأمن مكر الله إلا القوم الكافرون، فينبغي للإنسان ألا يأمن مكر الله، ولا يقول: سأسوف وأفرط هذا اليوم وأتمتع بالحرام ونحو ذلك، فربما ختم الله عز وجل له بالحرام فكان من أهل النار والعياذ بالله، بل عليه بملازمة التقوى فإنه لا يدري. والإنسان له قيامتان: قيامة خاصة به وهو الموت، وقيامة عامة للناس، وأخطر وأشد ما على الإنسان هي قيامته الخاصة التي لا يعلم متى تأتيه، فالموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً.

صاحب التقوى الحقيقية

قوله: (ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل) المراد بذلك: ليس من يسافر الأسفار ويمشي في البراري على قدميه ويقطع المفاوز هو الرجل، والبطل والقوي والجبار، ولكن من يتقي الله سبحانه وتعالى هو البطل، وهذا فيه دليل على منقبة عند العرب، وهي أنهم يمدحون صاحب الأسفار الذي يسافر لكسب الرزق والذهاب والمجيء ونحو ذلك، ولذلك
الإمام الشافعي عليه رحمة الله مما ينسب له في ديوانه قال:

سافر تجد عوضاً عما تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش في النصب

إني رأيت وقوف الماء يفسده إن سرى طاب وإن لم يجر لم يطب

ومعروف أن الماء الجاري هو الماء الصافي الذي لا يلوثه شيء، كمياه الأودية، أما الغدران الباقية فهذه تجري عليها الناس والبهائم حتى تفسد، فعليك بالجريان كالماء الذي رأيت وقوف الماء يفسده، إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب.

تصديق الشرع بخصوص الغيب وتكذيب المنجمين

قال المصنف رحمه الله:

[صدق الشرع ولا تركن إلى رجل يرصد في الليل زحل]

مراده بذلك: عليك بتصديق الشرع أنه لا يعلم الغيب إلا الله، (ولا تركن إلى رجل يرصد في الليل زحل) والمراد بذلك المنجمون، ولذلك تقول العرب: كذب المنجمون ولو صدقوا، فإن صدقوا فهذا من باب الصدفة، ولا تنظر إلى الكواكب والنجوم تريد أن تعلم علماً مستقبلياً، وصدق الشرع أنه لا يعلم الغيب إلا الله، ولذلك من ادعى علم الغيب فقد نازع الله عز وجل في حقه.

أقسام علم الغيب

الله سبحانه وتعالى لديه مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، فلا يعلم الغيب المستقبلي إلا الله، لكن الإنسان قد يعلم شيئاً من الغيب المستقبلي من بابين:

الباب الأول: باب ما أخبر به الشرع، كأن يقول النبي عليه الصلاة والسلام: يأتي في آخر الزمان كذا وكذا، كما في حديث جبريل عليه السلام قال: (وما أماراتها)، وذكر علامات وأشراط الساعة.

الباب الثاني: باب الرؤيا الصالحة، ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة)،

فإذا صدقت الرؤيا فهذا باب نافذ إلى الغيب، وما عدا ذلك فلا يمكن للإنسان أن يعلم الغيب، وإن ادعى ما ادعى؛ لأن الله عز وجل استأثر بعلم الغيب عنده، هذه في العلم المستقبلي.

أما العلم الماضي وما حدث في القرن الماضي أو الذي قبله، أو قبل مليون سنة ونحو ذلك فهذا يعلمه الإنسان بالوسائل الطبيعية، إما بنقل الأخبار والأسانيد والرواة، وإما ما يبدو للإنسان مكتوباً، وإما ما يجده الإنسان من آثار، فإذا وجد الإنسان مكتوباً على جدار ونحو ذلك فإنه يعلم أنه قد جاء أناس هنا، وكتبوا كذا وكذا، وجاء فلان كذا وكذا، فإنه يستدل به على هذا من الحواس المعروفة، وما عدا ذلك فلا يمكن للإنسان أن يدعي الغيب، أما أن يصمت الإنسان ويقول: حدث قبل مليون سنة كذا وكذا، فهذا ادعاء لعلم الغيب.

أما علم الغيب الحالي فيعلمه الإنسان بالوسائل المعروفة، فإن ادعى علماً بغير الوسائل المعروفة، كأن يقال له: أين فلان؟ فيقول: فلان في المكان الفلاني، من غير وسيلة، فهذا لا شك أنه ادعاء لعلم الغيب، وهذا كفر بالله سبحانه وتعالى، أما إذا علم أن فلاناً الفلاني، واتصل به عبر الهاتف أو الجوال، أو أخبره فلان أنه في البلد الفلاني، أو أنه مريض في الدولة الفلانية، أو في المكان الفلاني، فهذا علمه الإنسان بالوسائل المعروفة التي أدرى الله عز وجل بها، وما عدا ذلك فقد أمر الله عز وجل بتصديق الشرع، وهو أن الغيب مقطوع لا يعلمه إلا الله.

النظر في النجوم

قوله: (زحل) زحل هي من الكواكب السبعة، وهي الشمس والزهرة وعطارد وزحل، وهذه تعلق بها الجاهليون بعلم الغيب، وهذا من وساوس الشيطان، فهي لا تعلم الإنسان غيباً، ولا تعلمه علماً يزداد به معرفة، وقد نهى بعض السلف، ولا أعلم في هذا شيئاً مرفوعاً عن النظر في النجوم حال سقوطها، وقد روى ابن أبي شيبةوالإمام أحمد في المسند من حديث أبي قتادة قال: (نهينا أن نتبع الشهب أبصارنا)؛ خشية أن ينقذف في قلب الإنسان أن هذا الشهب أراد الله عز وجل به كذا وكذا، لكن هذا الحديث لا يصح مرفوعاً، وإنما أردنا به استئناساً، ويعارضه ما جاء في حديث صحيح الإمام مسلم لما قال سعيد بن جبير : (أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قال: أنا)، مما يدل على جواز النظر في النجوم من غير علم الغيب.

عجز العقول عن إدراك الله تبارك وتعالى

قال المصنف رحمه الله:

[حارت الأفكار في قدرة من قد هدانا سبلاً عز وجل]

أي: أن الإنسان لا يمكن أن يدرك الله سبحانه وتعالى، فالله عز وجل لا تحيط به الأبصار ولا تدركه العقول، والله عز وجل أحاط بكل شيء علماً، وهذا قطع من المصنف عليه رحمة الله تعالى أن لا يتفكر في علم الغيب؛ لأنه لا يمكن للإنسان أن يدركه بالمحسوس.

وقوله: (حارت الأفكار) أي: تحور وترجع، ولا تستطيع أن تعرف شيئاً، وقد أمر الله عز وجل الإنسان أن يمد بصره إلى السماء أكثر من كرة، فيرجع إليه البصر خاسئاً وهو حسير؛ لأنه لا يمكن أن يدرك حقيقة الله سبحانه وتعالى، والله عز وجل ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ﴾ [الأنعام:103]، أي: لا يمكن للإنسان أن يحيط بالله عز وجل علماً على الحقيقة، إلا بما أخبر الله عز وجل به في كتابه وفي سنة رسول الله ﷺ.

ومهما يتخيل الإنسان الله عز وجل أنه كذلك فالله فوق ذلك، فلا يتفكر الإنسان بصفات الله عز وجل كيفيةً وهيئةً ونحو ذلك، فالله عز وجل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:11]، وهذا قطع أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى:11]، والإنسان مجبول على تصور كل مذكور، وإذا قيل له: قابلت رجلاً فيه كذا وكذا، فإنه يتخيل رجلاً على هيئة فلانية، إما أن يكون على هيئة رجل رآه، وإما أن يكون على هيئات رجال لهم صفات، فوضعها في هذا الرجل.

وكثير من الناس يقول: أنا قد سمعت بك يا فلان، وتخيلتك بشكل معين، والإنسان قد يتخيل ما يسمع به خيالاً، وهذا يخطر في قلب الإنسان، أي: أن الله عز وجل على الصفة الفلانية، وكان الواجب عليه أن يعلم يقيناً أن ما يتخيله الإنسان عن الله، فليعلم أن الله فوق ذلك؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يتخيل في قلبه إلا ما هو محسوس، والإنسان لا يمكن أن يتفكر بشيء إلا وقد رآه، أما أن يتفكر بشيء لم يره فلا يمكن قطعاً إلا بشيء قد رآه يقظة أو مناماً، ولو أن الإنسان أعطي ورقة وقلماً، وقيل له: يا فلان! اكتب شيئاً لم تره، أو ارسم شكلاً لم تره، فهل يستطيع؟ لا يمكن أن يستطيع، إما أن يرسم شيئاً رآه، وإما أن يجمع صفات قد رآها متفرقة ووضعها بشكل معين، أما أن يضع أو يرسم شيئاً لم يره، فأبداً لا يمكن هذا؛ لأن عقل الإنسان كالحافظة، تنقدح فيه المعلومات ويخرجها، أما أن يبتكر شيئاً جديداً لم يخطر له على بال فلا يمكن هذا أبداً، وقد انفرد الله عز وجل بالابتكار من عدم، أما الإنسان فلا يبتكر من عدم أبداً، ولكنه يأخذ من صورة، ويجمع من صورة إلى صورة، ويؤلف بينها، فتخرج بزعمه أنها صورة جديدة قد جمعها، وهذا يدل على كمال الله سبحانه وتعالى.

الموت قاطع ما اتصل ومفرق ما اجتمع

قال المصنف رحمه الله:

[كتب الموت على الخلق فكم فل من جيش وأفنى من دول

أين نمرود وكنعان ومن ملك الأرض وولى وعزل

أين عاد أين فرعون ومن رفع الأهرام من يسمع يخل

أين من سادوا وشادوا وبنوا هلك الكل ولم تغن القلل

أين أرباب الحجى أهل النهى أين أهل العلم والقوم الأول]

الموت أمر حتم

قوله: (كتب الموت) أي: من حارت فيه الأفكار وهو الله سبحانه وتعالى كتب الموت على الناس، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران:185]، ويقول ابن كثير: في هذه الآية عزاء لكل البشر أن كل ما في هذه الأرض ميت، ألا يكفي في هذا عزاء، لست أنت وحدك، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن:26-27]، والنبي عليه الصلاة والسلام خاطبه الله عز وجل معزياً له بقوله: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر:30]، أي: لست وحدك والناس كلهم، وفي هذه الآية عزاء لكل بشر.

والإنسان حينما يعزي غيره تجده يقول له: توفي فلان وتوفي فلان، ونحن ميتون، فهذه الآية فيها عزاء لكل الناس: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران:185]، والله عز وجل قد كتب الموت على الخلق، وكل ما على هذه الأرض فان، وكذلك الأرض.

إهلاك الله للجيوش والدول

وقوله: (فكم فل من جيش) أي: كم من جيش قد تجمع فلّه الله عز وجل، وقد انتشر في هذه الأرض، ثم اندثروا في هذه وأكلهم الثرى.

وقوله: (وأفنى من دول) أي: الدول التي تظن أنها باقية وأنه لا يفنيها شيء، وحكمها لا يزول، إلا أن الله عز وجل يجعل عجلة الزمان تطوي تلك الأمم والشعوب، فكم مر على الأمم من دول، وإذا كان عصر الخلفاء الراشدين خلافة النبوة قد انقضت، وجاءت خلافة بني أمية ثم بني العباس وجاء من جاء بعدهم، فهذا كله من أعظم العبر على أن الإنسان لا يبقى على أمر معين وعلى حال.

والإنسان إذا كان في يومه يتقلب من حال إلى حال فكيف بأهله وكيف بعمره، بل كيف بالدول كلها، فإن الإنسان يمل، ولا بد أن يقلب الله عز وجل له الحال، ولولا المرض لما عرف الإنسان قيمة الصحة، ولولا الموت لما عرف قيمة الحياة، ولولا فرقة الأحباب والأصحاب لما عرف قيمة الاجتماع، وما أنعم الله عز وجل به، ولولا الشتاء لما عرف نعمة الصيف، ولولا نعمة الصيف لما عرف نعمة الشتاء، فالله عز وجل يقلب الإنسان من حال إلى حال؛ لكي يعرف النعمة الأخرى، والإنسان كفور وليس بشكور على الأغلب من حاله، وفي ذلك يقول الشاعر:

يحب المرء في الصيف الشتاء وإذا جاء الشتاء أنكره

لا بذا يرضى ولا يرضى بذا قتل الإنسان ما أكفره

فلا يرضى بالشتاء إن كان فيه، ولا يرضى بالصيف إن كان فيه، إذاً يرضى بماذا؟ ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس:17]، ولولا ما يقلب الله عز وجل حال الإنسان من بؤس وشقاء ونعمة ونقمة، وما يقلب الله عز وجل عليه الإنسان من ليل ونهار، فإن الإنسان قد يقنط وييأس، والله عز وجل امتن على الناس بتقلب الأحوال وتقلب الإنسان من حياة وموت ومرض وسقم ونحو ذلك، وكل ذلك ليعرف الإنسان نعمة الله عز وجل، يقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾ [القصص:71]، لا يأتي به إلا الله سبحانه وتعالى، فإن جعل الله عز وجل الليل على الناس أو جعل الضياء الأيام الطوال والأزمان بلا نوم، فمن يأتيهم بليل يسكنون فيه؟ لا يأتيهم بذلك إلا الله سبحانه وتعالى، وقد أراد الله عز وجل بذلك أن يبين النعمة.

وإذا دام الإنسان على حال، فإنه يقنط وييأس وإن كان في نعيم، وكثير من أهل الدنيا والرفاهية والمال يخرجون إلى الفلوات والأودية والشعاب، يريدون أن يتمتعوا بما لم يروه، مع أن أصحاب الشعاب والبراري والشقاء والبؤس يتمنون ما هم فيه، فكل يتمنى أن يتغير حاله؛ لأن الله عز وجل قد جبل الإنسان على حب ذلك.

فناء وموت ملوك وجبابرة الأرض

قوله: (أين نمرود وكنعان) نمرود هو ابن كنعان بن حام بن نوح ، وقيل: إن كنعان من ولده إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وهو الذي حاج إبراهيم في ربه كما في القصة، فأين هؤلاء، هل بقيت لهم الدنيا، وقد كانوا أسيادها وأربابها.

وقوله: (ومن ملك الأرض) أي: ولى فلاناً، ونصبه عليها، وعزل فلاناً، أين هؤلاء الذين يأمرون وينهون؟ قد حلوا في التراب، وحل بهم ما حل بغيرهم، وبذلك يستوي الناس عامة، كلهم سواسية في الموت، ميتتهم واحدة، ومصيرهم واحد، وترابهم واحد، وكفنهم واحد، سواسية عند الله سبحانه وتعالى، لكنهم يختلفون في حال معيشتهم في هذه الدنيا امتحاناً واختباراً.

قوله: (أين عاد) عاد هو عاد بن روس بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام.

قوله: (أين فرعون) فرعون هو صاحب موسى، وليس هذا اسمه، وسمي فرعوناً لأن كل من ملك مصر يسمى فرعوناً، وكانوا يسمون أتباعهم بالفراعنة من باب القوة والبطش، واسمه غير معروف، وقد اختلف في معرفة اسمه، ولكن لا يوجد في ذلك شيء ثابت.

وقوله: (ومن رفع الأهرام من يسمع يخل) الأهرام هي الأهرام المعروفة في مصر، أي: أين من رفع تلك الأهرام المعجزة التي جعلها الله عز وجل للناس عياناً؟ أين هؤلاء الشعوب الذين مكن الله عز وجل لهم في الأرض ما لم يمكن لغيرهم؟ فإذا كان هؤلاء قد أوتوا من البطش والقوة ما جعل الله عز وجل لهم في هذه الأرض وزالوا، فغيرهم إلى الزوال من باب أولى.

قوله: (أين من سادوا وشادوا) أي: أين من شادوا وسادوا في قومهم، فأصبحوا أسياداً، وشادوا من شيد بهم، أو شادوا في غيرهم.

قوله: (وبنوا) أي: بنوا القلال والبيوت والحجرات والقصور وشيدوها، أين هؤلاء، فقد تركوها وزالوا إلى الفناء.

قوله: (هلك الكل ولم تغن القلل) المراد بالقلل هي المرتفعات التي وضعوها، والرفعة التي جعل الله لهم في حياتهم، وتسمى القلة الجبل المرتفع، ويقال: فلان أقل المتاع إذا حمله، ويقال: استقل فلان الطائرة أي: ارتفع عليها، واستقل فلان الدابة إذا ارتفع عليها، والمراد أين تلك الأماكن الرفيعة التي كانوا يرفعون عليها، وتلك العروش والكراسي والأماكن التي كانوا يجلسون عليها، وأين تلك الفرش والبسط التي كانوا يرتفعون عليها؟ أين هم الآن؟ قد ذهبوا إلى فنى.

هلاك أصحاب العقول والعلم

قوله: (أين أرباب الحجى أهل النهى) أي: أين أصحاب العقول، يقال: فلان أحجى من فلان، أي: أرجح عقلاً.

وقوله: (أين أهل العلم) أهل العلم والجهل في هذا الباب واحد، أي: في الموت لا واحد، ولا فرق، ولكنهم يختلفون في العقيدة، يختلفون في العاقبة، في موتهم، ميتتهم واحدة، لكن الله عز وجل قد يختم لإنسان بخير، ويختم لآخر بشر، لكنه في حال الموت سواء، فهذا يموت وذاك يموت، الصالح والطالح، وهذه حقيقة يؤمن به الجميع بالإطلاق، يؤمن بها العاقل والسفيه، والعاصي والطائع، الكافر والمؤمن، كلهم يؤمن بحقيقة الموت، وإن تجاهل هذا البعض.

هلاك البهائم

وحقيقة الموت يدركها حتى البهائم التي أزال الله عز وجل عنها العقل، فتدرك حقيقة الموت، وأن ثمة أمراً يزيل هذه الدنيا، فأنت حينما تقترب من طائر يفر، لماذا يفر؟ يفر من الموت، وحينما تأتي إلى بهيمة وتدنو منها تفر، تفر من ماذا؟ تفر من الموت، فهي تدرك أن ثمة حقيقة وحتفاً لا بد أن يأتيها، ومن الذي علمها؟ علمها الله سبحانه وتعالى أن ثمة أجلاً محتوماً لا بد أن يأتي عليها، فإذا كانت البهائم تدرك تلك الحقيقة فبنو آدم ينبغي أن يكونوا أدرك لهذه الحقيقة، لا أن يفروا من الموت، فهو محتوم وآتٍ، والإنسان له ساعة لا يستقدم فيها ولا يستأخر عنها لحظة، لكنه يسعى إلى طاعة الله عز وجل والاستقامة على أمره.

إعادة الله لكل من فنى ومات

قال المصنف رحمه الله:

[سيعيد الله كلاً منهم وسيجزي فاعلاً ما قد فعل

أي بني اسمع وصايا جمعت حكماً خصت بها خير الملل]

قوله: (سيعيد الله كلاً منهم) أي: سيعيد الله عز وجل كل من فني ومات في هذه الدنيا، سيعيده الله عز وجل؛ ليعرض بين يديه، فيقره الله سبحانه وتعالى على ما عمل، فكل ما عمله الإنسان من خير وشر، مسطر في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسيعيده الله يوم البعث، وهذا هو الذي أنكره المنكرون أهل الجهل، وآمن به أهل الرجاحة والعقل، أنهم مؤمنون

بالبعث والنشور.

وأنت حينما تتأمل تجد أن عقلك يجعلك يقيناً تؤمن بأن الله عز وجل يبعث الناس، بل يجعلك وإن لم تؤمن بأن الله يبعث الناس يجعلك من الأولى أن تؤمن، و أبو العلاء المعري ذلك الشاعر الذي وقع فيما وقع فيه من مجون، واتهم في دينه وعقله، لما لقي بعض أهل التنجيم الذين قالوا له: إن الله لا يبعث الأموات، ولا تبعث الأرواح يوم القيامة، فلماذا تؤمن؟ هو أبعد نصوص الشرع، وقال: وإن لم يكن هناك نصوص وأنتم تكذبون بالقرآن، فأين العقل؟ فأبو العلاء المعري شيخ المعرة، ذلك الشاعر العظيم العبارة وقويها، صاحب العقل الرجيح، وإن كان ضل في كثير من الأبواب، إلا أنه في هذا الباب وفق إلى الحق، فلما قيل ذلك تمثل بقول الشاعر:

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

معنى ذلك: أن المنجم والطبيب حينما قالا له: إن الأموات لا تبعث، قال: إليكما، إن صح قولكما أنه لا يوجد بعث فأنا مؤمن بالبعث، فلا يوجد خسارة عليك، إذاً أنا إلى فنى، وإن صح قولي فالخسارة عليكما، إذاً أنا ناجٍ في حالة، وأنتم خاسرون في حالة، ولا يوجد لدي خسارة، وهذا ما يدل عليه العقل، وهو ما يسمى بباب الاحتياط، وهذا من جهة العقل، وقبل ذلك الإنسان مسلم بما أمر الله عز وجل به.

والله عز وجل قد جعل للإنسان عقلاً يفكر به ويعرف به الحقيقة، ويميز به قول الشخص هل هو حقاً أو صواباً، يقول الشاعر:

هل صح قول من الحاكي فنقبله أم هذا أباطيل وأسمار

أما العقول فآلت أنه كذب والعقل له غرس بالصدق أثمار

أي: أن العقل غرس ونبتة للصدق، فبه يميز الإنسان الخطأ من الصواب.

مجازاة الله للخلق بعد البعث

قوله: (وسيجزي فاعلاً ما قد فعل) أي: أن الله عز وجل سيجزي صاحب الخير بالخير، وسيجزي صاحب الشر بالشر، إن كان صاحب خير بالعاقبة الحسنة في الجنة، وإن كان صاحب شر بالعاقبة السيئة في النار، إن لم يغفر الله عز وجل له إن كان من أهل الإيمان.

فإذا عمل الإنسان السيئات وتاب منها واستغفر وأناب إلى الله عز وجل، فالله عز وجل لا يعذبه بها، و(التائب من الذنب كمن

لا ذنب له)، لكن هل يقره الله عز وجل على ذلك الذنب، ويسأله عنه وإن تاب؟

قد اختلف العلماء في هذا، فذهب بعض السلف، وهو قول الحسن البصري وغيره إلى أن الإنسان إن أذنب ذنباً أو أذنب ذنوباً فتاب واستغفر أنها لا تمحى من صحيفته، لكنه لا يعذب بها ويقرر بها يوم القيامة: يا فلان! أتذكر سيئة كذا وكذا، قد غفرها الله عز وجل لك.

وذهب بعض العلماء إلى أنها تمحى، وهذا هو الصواب، فلا يسأل عنها؛ لأن النبي ﷺ يقول كما في حديث عبد الله بن عمرو : (التوبة تجب ما قبلها، والإسلام يجب ما قبله، والهجرة تجب ما قبلها، والحج يجب ما قبله).

- **الدعوة لطلب العلم وترك الكسل**

قال المصنف رحمه الله:

[أي بني اسمع وصايا جمعت حكماً خصت بها خير الملل

اطلب العلم ولا تكسل فما أبعد الخير على أهل الكسل]

قوله: (أي بني اسمع وصايا جمعت..) يريد المصنف هنا أن يرشد إلى وصايا عظيمة جليلة، قد سبق شيء منها، وما يأتي فهو الأهم والأجل، والأهم في حياة الإنسان.

وقوله: (اطلب العلم ولا تكسل) هنا جعل طلب العلم لا يمكن أن يتحقق للإنسان إلا وقد أبعد الراحة والدعة والكسل؛ لأنه لا يمكن للإنسان أن يصل إلى العلا إلا وقد سهر الليالي، ولا يمكن أن يصعد ويبلغ إلى أعلى المراتب والأماكن الحميدة في هذه الأرض إلا وقد جد واجتهد.

وقلما من الناس من يرث المجد إرثاً، ويكون من أهل السيادة في الدنيا إرثاً، فهم أفراد معدودون، لكن الأصل أن الإنسان لا يكون من أهل السيادة والرفعة والعلو إلا بالسهر، أما العلم فلا يعرف إرثاً، ولا يعرف نسباً، فيرفع الله عز وجل به أسياداً، ويرفع الله عز وجل به العبيد الذين قد وضعوا، ويضع الله عز وجل بالجهل الأسياد، وقد جعل الله عز وجل الفقهاء السبعة جلهم من الموالي؛ لأن العلم لا يعرف نسباً، فالله عز وجل يرفع به، وقد جعل الله عز وجل الذين يعلمون ليسوا كالذين لا يعلمون.

ثم أخذ المصنف يحث على تفاصيل ذلك من الاحتفال به والتفقه، ويأتي الكلام عليه بإذن الله عز وجل، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

الدرس الثاني

طلب العلم من السبل الموصلة إلى الجنة، ولا زال العلماء والأدباء يقولون الشعر، لكنهم لا يبتذلونه في المعاني القبيحة، وأهل العقل والفضل لا يتكلون على أصولهم وأنسابهم، بل على أعمالهم، وهذه الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولذلك يعطي منها الكافر والمؤمن، فلا ينبغي الحرص عليها.

الوصية بطلب العلم والفقه في الدين

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

فنكمل ما تبقى من لامية ابن الوردي عليه رحمة الله.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

[اطلب العلم ولا تكسل فما أبعد الخير عن أهل الكسل

واحتفل للفقه في الدين ولا تشتغل عنه بمال أو خول

واهجر النوم وحصله فمن يعرف المطلوب يحقر ما بذل

لا تقل قد ذهبت أربابه كل من سار على الدرب وصل

في ازدياد العلم إرغام العدا وجمال العلم يا صاح العمل].

فضل طلب العلم

قوله: (اطلب العلم) طلب العلم من مسائل الخير ودروبه، ومن السبل والطرق الموصلة إلى الجنة دار السلام، كما روى الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة)، فالعلم من الطرق السهلة المستقيمة التي توصل الإنسان إلى الجنة بأيسر السبل، وذلك أن الإنسان يعرف بها مواطن العبادة، ومواطن الخير ومواطن الشر، بخلاف العامي الذي ربما يقتصر على عبادة واحدة، فيظن أنها فيها درجة الكمال، ويقصر في هذا، ويفرط في عبادات كثيرة.

ولذلك أبو هريرة عليه رضوان الله تعالى لما حدث بقول النبي عليه الصلاة والسلام، وكذلك روي عن عبد الله بن عمر عليه رضوان الله تعالى، لما قيل له: (إن من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان، قال: لقد فرطنا في قراريط

كثيرة)، والسبب في ذلك أن الإنسان لا يعلم ذلك الأجر والثواب الذي جعله الله عز وجل في أعمال الخير، فإذا علم أن ذلك الثواب رتبه الله على ذلك العمل فإنه يتبعه.

إذاً السبب هو العلم والثناء والخير الذي يسعى إليه الإنسان في تحصيل المعرفة، وتحصيل العلم.

والعلماء يتقدمون الناس يوم القيامة منزلة ورفعة؛ لأنهم عرفوا مواطن الشر، فتبعوا مواطن الخير وأعلى مواطن الخير التي تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى، وحذروا من مواطن الشر ومن مداخل الشيطان ووساوسه.

والعلم من أفضل العبادات، بل نافلة العلم من أفضل النوافل، بل هي أفضل النوافل على الإطلاق، وواجب العلم أفضل واجباته على الإطلاق، فلا يمكن أن تتحقق العبادة عند الإنسان إلا بمعرفتها والعلم بها، وما عدا ذلك لا يمكن للإنسان أن يتعبد بشيء لم يعلمه.

إذاً: التوحيد هو أعظم الواجبات على العباد، ثم يليه أركان الإسلام التي لا يمكن للإنسان أن يحققها أو يأتي بها إلا بعلمه بها، ولذلك كان العلم بمسائل العقائد والتوحيد هي أشرف العلوم؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم.

ترك الكسل في طلب العلم

قوله: (ولا تكسل فما أبعد الخير على أهل الكسل) لأن العلم بحاجة إلى جد واجتهاد ومثابرة، والعلم لا يمكن أن يتحقق منه الإنسان إلا بالصبر والمجالدة ومجاهدة النفس.

يقول العلماء: العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، أي: حتى تتفرغ للعلم بوقتك كله، فإنه يعطيك بعضه، ولا يحصي العلم إلا الله سبحانه وتعالى، وقد جاء بعض السلف إلى عبد الله بن عباس وسأله عن علمٍ مسألة ما فقال: لا أعلمها، فاستغرب، فقال له ابن عباس : أو كل العلم تعلم؟ قال: لا، قال: ونصفه؟ قال: نعم. قال: عدها من النصف الذي لا تعلمه)، فالإنسان لا يمكن أن يحيط بعلم الله سبحانه وتعالى، والله عز وجل قد وسع علمه كل شيء.

الحرص على الفقه في الدين

قوله: (واحتفل للفقه في الدين ولا تشتغل عنه بمال وخول) التفقه في الدين هو من طلب العلم، والمراد بالتفقه بالدين هو معرفة الحلال والحرام، ولذلك يسمى الفقه في الدين والعلم بالذكر، فإذا أطلق الذكر في الكتاب والسنة فالمراد به الفقه، وليس المراد به التذكير بالمواعظ، أو ذكر الله عز وجل التي يلهج بها الإنسان بين فينة وأخرى، وفي ذلك يقول عبد الله بن مسعود عليه رضوان الله تعالى: (الذكر ذكر الله؛ كيف تصلي؟ كيف تصوم؟ كيف تتصدق؟)، وروي عن عطاء كما رواه أبو نعيم في كتاب الحلية، قال: (ذكر الله هو كيف تطلق وكيف تنكح وكيف تتزوج) لا كما يقول القصاص.

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام كما روى الترمذي في سننه بإسناد فيه ضعف: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما

رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر)، والمراد بحلق الذكر هي الفقه والتعليم، ومعرفة الحلال والحرام.

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)، والمراد بروضة من رياض الجنة أنها سبب في دخول الجنة، وذلك أن ذلك الموطن كان النبي عليه الصلاة والسلام يعلم فيه أصحابه، وللعلماء في هذا المعنى قولان:

فذهب الجمهور إلى أن المراد بقوله عليه الصلاة والسلام: (ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)، أن المراد أن هذا الموطن إما أن ينقل إلى الجنة، وإما أن يكون ذلك موطن مبارك، فيستحب فيه العبادة.

وذهب جماعة من المحققين وهو قول ابن القيم كما نبه عليه في كتاب الجواب الكافي، و هو قول ابن عبد البرعليه رحمة الله تعالى في الاستذكار والتمهيد إلى أن المراد بذلك روضة من رياض الجنة، وهو نظير قوله عليه الصلاة والسلام: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر).

إذاً: ما بين منبر النبي عليه الصلاة والسلام وبيته روضة من رياض الجنة، أي: ذلك الموطن هو الذي يعلم فيه النبي عليه الصلاة والسلام الحلال والحرام، وتلك البقع على المسلم أن يحرص عليها، فهي روضة من رياض الجنة، أي: للتعليم، وسبب لدخول الجنة، ومعرفة الحلال والحرام.

وفي تلك اللحظة لا يتعبد الله عز وجل فيها بميزة تختلف عما يليها، ومثلها كسائر بقاع المسجد النبوي.

والنبي عليه الصلاة والسلام قد امتدح من فقه في دين الله سبحانه وتعالى؛ فقال عليه الصلاة والسلام: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، كما في حديث معاوية في الصحيحين. والمراد من ذلك أن الله عز وجل إذا أراد بعبده الخيرية صرفه إلى العلم والتفقه في الحلال والحرام، وإذا أراد به سوءاً وشراً أبعده عن العلم ومعرفة الحلال والحرام، وانشغل بالترهات، وبعد عن دين الله سبحانه وتعالى، وهذا مفهوم دلالة ومفهوم مخالفة.

هجران النوم

قوله: (واهجر النوم وحصله فمن يعرف المطلوب يحقر ما بذل) أي: لا بد للإنسان حينما يريد أن ينال مناله من العلم والمعرفة أن يهجر ضد ذلك، من النوم والكسل والراحة والدعة، وفي ذلك يقول الشاعر:

لا تحسبن المجد تمراً أنت آكله لن تنال المجد حتى تلعق الصبر

أي: لا بد أن يمر عليك من الألم والتجرع وهجران المضاجع ونحو ذلك حتى تنال الرفعة والمنزلة العالية عند الله سبحانه وتعالى، وتبتعد عن لذائذ الدنيا، ويقول الشاعر:

لا تركنن أن تعود سهر الليل فإن النوم خسران

لا تركنن إلى الذنب فإن الذنب نيران

طلب العلم حتى في الكبر

قوله: (لا تقل قد ذهبت أربابه كل من سار على الدرب وصل) أي: لا تقل قد فاتك العلم، فالعلم يطلب في كل حين حتى على الكبر، و البخاري ترجم في صحيحه في كتابين، قال: باب تعلم العلم في الكبر، ثم قال: وقد تعلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كبر سنهم، أبو بكر تعلم وتفقه، و عمر بن الخطابعليه رضوان الله تعالى، كلهم قد بلغوا المشيب، وحينما دخلوا الإسلام وأصبحوا من الفقهاء في الإسلام، و معاذ بن جبل من أعلم الناس بالحلال والحرام، ويأتي يوم القيامة أمام العلماء برتوة، وهو من كبار السن كذلك.

والعلم لا يحصره زمن ولا وقت ولا سن معين، وقد جاء عن غير واحد من أئمة الإسلام أنهم تعلموا في الكبر، فابن حزم الأندلسي ابتدأ العلم بعد الأربعين، وقد برع في ذلك حتى أصبح من أذكياء الدنيا، كما سماه شيخ الإسلام ابن تيمية عليه رحمة الله.

ومن أعظم مداخل الشيطان على طالب العلم أن يقنطه من الحصول على مناله في العلم والمعرفة، كمضي العمر وتمكن من هو دونه في العلم، وتقصيره في ذلك، وربما ضعف في عقله أو ضعف في فهمه، وعدم تدبره أو عدم حفظه ونحو ذلك، وعقول الناس كلها واحدة، والله عز وجل خلق الناس على أحسن تقويم، فهم يتفاوتون، فمن ربى نفسه على الفهم والحفظ فإنه يكون من أهل الفهم والحفظ، ومن رباها على غير ذلك فإنه يكون من دون ذلك، والإنسان إذا اعتاد على الحفظ والمدارسة والفهم فإنه يكون من أهل الفهم والذكاء، وإذا ربى نفسه على غير ذلك فإن النفس توطن وتساس بحسب ما يسوسها به صاحبها.

ثمرة العلم

وقوله: (في ازدياد العلم إرغام العدا وجمال العلم إصلاح العمل) أي: حينما يكون الإنسان متعلماً فلا شك أن في ذلك إرغاماً لحاسديه، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام كما رواه البخاري من حديث عبد الله بن مسعودقال: (لا حسد إلا في اثنتين)، أي: إن كان ثمة حسد يستحق أن يحسد عليه الإنسان: (رجل آتاه الله علماً فهو يقضي به بين الناس ويعلمه، ورجل آتاه الله مالاً ..) إلى آخر الخبر، لكن الشاهد من هذا مسألة العلم، فإنه هو الذي ينبغي أن يحسد عليه، والناس يحسدون الإنسان على العلم ومعرفة مواطن الخير ونحو ذلك، والعالم يهاب، لأنه صاحب معرفة، فلا يمكن أن يدلس عليه، سواءً كان معرفة بحال الدنيا أو معرفة بأحوال الشرع ومعرفة الحلال والحرام، فكلما تمكن في الأمر صعب الدخول عليه من هذا الباب، سواءً في أمور البيع والشراء، فإن تمكن من ذلك فإنه لا يخدع، ولذلك يقول عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى كما روى الترمذي في السنن: (لا يبع في سوقنا إلا من قد فقه في ديننا)؛ لكي لا يقع في ما يخالف الشرع.

تجميل المنطق بالنحو

قال المصنف رحمه الله:

[جمل المنطق بالنحو فمن يحرم الإعراب بالنطق اختبل].

النحو للكلام كالملح للطعام، فهو الذي يحلي الكلام، وينبغي لطالب العلم أن يحلي كلامه بالنحو.

والنحو هو استقامة آخر الكلام، ويدخل في النحو باب الإعراب وباب الصرف، والصرف هو ضبط أواسط الكلم وأوله، والإعراب هو ضبط آخر الكلم، وكله من النحو.

والنحو علم لا يقبل التوسع، فقواعده مضبوطة، ولا يمكن أن يوسع بخلاف سائر العلوم كعلوم الآلة من علم الأصول والأدب ونحو ذلك التي تتوسع بتوسع الناس، أما علوم اللغة وخاصة علم النحو فلا يمكن أن يتوسع، فهو قواعد معلومة ولا يمكن أن تتعدد، ولا يبالغ الإنسان فيه فيغلب على كلامه التقعر والتكلف ونحو ذلك، وقد نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك، ونهى كذلك عن المبالغة في السجع، وقد سماه عليه الصلاة والسلام ضرباً من ضروب السحر.

نظم الشعر وقوله

قال المصنف رحمه الله:

[انظم الشعر ولازم مذهبي في اطراح الرفد في الدنيا أقل

فهو عنوان على الفضل وما أحسن الشعر إذا لم يبتذل]

الحث على نظم الشعر الرفيع

هنا يحث المصنف على نظم الشعر، ونظم الشعر من وجوه الأدب، فإن الإنسان الذي ينظم الشعر يكون صاحب ذوق رفيع، إلا أن النزول في الشعر والسعي في ابتذاله والإكثار منه ونحو ذلك مما يذم فيه الإنسان، كقول الشعر المذموم الذي فيه إسفاف وإسقاط، ولذلك قال: (ولازم مذهبي في اطراح الرفد) فيطرح الإنسان تلك المعاني الساقطة من معاني الشعر ونحو ذلك، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول كما في الصحيح: (لأن يمتلئ صدر أحدكم أو جوف أحدكم قيحاً وصديداً خير له من أن يمتلئ شعراً)، والمراد بالشعر هنا هو الشعر الساقط السافل، الذي لا معنى خير فيه، بل هو معنى شر، كالهجاء والغزل الفاحش ونحو ذلك، فهذا من الشعر الساقط.

ولا زال العلماء من العصر الأول يشعرون، لكنهم لا يشعرون في المعاني القبيحة، يقول الإمام الشافعي عليه رحمة الله:

لولا أن الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم أشعر من لبيد

ولولا خشية الرحمن ربي ظننت الناس كلهم عبيد

وذلك أن الشاعر كلما بلغ بشعره منزلة رفيعة وقع فيه من الكبر والغطرسة والرفعة عن الناس؛ لأنه يملك لساناً سليطاً يهجو به فلاناً وفلاناً، ويقع في نفسه من الكبر على الناس ، و الشافعي قد استنبط من هذا المعنى أن ترك المبالغة في الشعر من صفات العلماء، وهو من شعراء العرب ومن أئمة اللغة عليه رحمة الله، وقد جمع بين العروبة وصلة النسب، فهو مطلبي عليه رحمة الله.

فضيلة الشعر

قوله: (فهو عنوان على الفضل) لأنه من الأدب، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يسمع الشعر ولم ينظمه لحكمة بالغة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لو كان شاعراً لاتهم بوضع القرآن، وقد نفى الله عز وجل عنه ذلك، وقال بعضهم: إن النبي عليه الصلاة والسلام يتمثل بالشعر، لكنه لا يشعر، وهذا وارد، لكنه ليس بشاعر عليه الصلاة والسلام، ومن قال ذلك فقد خالف ظاهر القرآن، وهذا كفر بالله سبحانه وتعالى، والله عز وجل نفى عنه أنه يكون ساحراً، لكنه يقول الكلام السجع، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب)، وقال أبو سفيان للنبي عليه الصلاة والسلام: (العزى لنا ولا عزى لكم)، فقال النبي عليه الصلاة والسلام راداً عليه في يوم أحد على السجع، قال: (الله مولانا، ولا مولى لكم).

ولا زال الشعر علامة على أهل الفضل إذا لم يكن ذلك فيه إسفاف، ولا يزال يحفظ من كلام السلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام كالإمام الشافعي والإمام أحمد والإمام مالك وغيرهم.

أحسن الشعر

قوله: (وما أحسن الشعر إذا لم يبتذل) أي: إذا لم يطلب به شيء من الدنيا، أو كان فيه مذمة، كأن يطعن في الناس ويقدح فيهم، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ((وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)) [الشعراء:224]، وهذا هو الأصل فيهم؛ لأنهم يملكون من السحر بالكلام، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: (إن من البيان لسحراً).

الفضل بين الناس

قال المصنف رحمه الله:

[مات أهل الجود لم يبقَ سوى مقرف أو من على الأصل اتكل]

أهل العقل والفضل لا يتكلون على أصولهم، ولكنهم يتكلون على أعمالهم، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول كما في الصحيح:

(من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه)، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول لفاطمة : (يا فاطمة ! سليني من مالي ما شئتِ، لا أغني عنك من الله شيئاً)، أي: يوم القيامة لا اعتبار بالأنساب، فما العبرة بالنسب؟ العبرة بالنسب كما قال الله عز وجل: ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات:13]، هذا هو العبرة؛ أن يتعارفوا، فتكون الأسماء كالأعلام على الناس، هذا فلان بن فلان، وما عدا ذلك فإنها لا تغني ولا تسمن من جوع.

أما ما عليه أهل السنة فإن جنس العرب أفضل من جنس غيرهم، ولكن هذا لا يعني أن ذوات العرب أفضل من ذوات غيرهم، فالذوات تختلف، كما يقال: إن جنس الرجال أفضل من جنس النساء، لكن لا يعني أن هذا الرجل أفضل من تلك المرأة، فمن أعيان النساء من يكون أفضل من أعيان الرجال وهذا كثير.

تقبيل اليد

قال المصنف رحمه الله:

[وأنا لا أختار تقبيل يدٍ قطعها أجمل من تلك القبل]

أي: أنني لا أتزلف بذلك الشعر الذي وهبني الله عز وجل إياه، لكي تقبل يدي، أو أقبل يد فلان؛ ليحصل لي شيء من نصيب الدنيا، وقد ذم العلماء عليهم رحمة الله تقبيل اليد، فذكر الإمام أحمد عليه رحمة الله تعالى في كتاب الورع من حديث سليمان بن حرب قال: (تقبيل اليد تلك هي السجدة الصغرى)، أي: أنها مذمة، وقد مال بعضهم وهم قلة من السلف إلى تحريمها وليس بصواب، فقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قد قبلت يده، وثبت عن العباس بن عبد المطلب أنه قبلت يده، وثبت عن عبد الله بن عباس عليه رضوان الله تعالى أنه رخص في ذلك، وهذا عليه عامة العلماء عليهم رحمة الله تعالى.

واختلفوا في تقبيل القدم، هل تقبل القدم أم لا؟

إذا كانت لأب أو أم فإنه لا حرج في ذلك، لكنه لا يكثر منها؛ لأن فيها شيئاً من الإذلال والخضوع، والأولى ألا يكون إلا لله سبحانه وتعالى.

أخذ العطايا على المدح

قال المصنف رحمه الله:

[إن جزتني عن مديحي صرت في رقها أولى فيكفيني الخجل]

وذلك أن الإنسان إن وهب فإن النفس مجبولة على حب من أحسن إليها، وهذا أمر معلوم، فإن أحسن شخص إلى آخر فنفس المحسن إليه مجبولة على حب من أحسن إليه، وهذا معروف في الطباع، بل أنها تغض الطرف عن خطايا ذلك المحسن، وهذا أيضاً

معلوم ومشاهد.

ولا زال العلماء يحذرون من عطايا الحكام والرؤساء والكبار؛ لكيلا تقصر هممهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بأمر الله، ولذلك يقول سفيان الثوري عليه رحمة الله: (إني لأرى الرجل يأتيني ويهش في وجهي، وفي صدري عليه، فأجد في نفسي ليناً نحوه، فكيف ونحن نطأ فرشهم ونأكل موائدهم)، يعني: السلاطين، فكيف إذاً قلوبنا على ذلك.

كما يحذر من أخذ العطايا من أرباب الفسق أياً كانوا، رؤساء أو وجهاء أو أغنياء ونحو ذلك؛ لكيلا تنكسر قلوب العلماء فيعجزون عن قول الحق، ويبتعدون عن المذلة للناس، وألا يذل لأحد إلا لله سبحانه وتعالى.

فضل الكرم وذم التسويف

قال المصنف رحمه الله:

[أعذب الألفاظ قولي لك: خذ وأمر القول نطقي بلعل]

قوله: (أعذب الألفاظ قولي لك: خذ) المراد بذلك الكرم، أي: أن يكون الإنسان كريماً، والمصنف هنا يرى أنها أجمل لفظ تمر عليه؛ أن يقول لأحدٍ من الناس: خذ إحساناً إليه، وذلك إما أن يكون من باب النفقة أو الصدقة أو الزكاة أو الهدية، وهذه كلها محمودة في الشرع، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام كما رواه الإمام أحمد والإمام مالك في الموطأ من حديث أبي هريرة قال: قال عليه الصلاة والسلام: (تهادوا تحابوا، فإن الهدية تسل السخيمة التي في قلب الإنسان على أخيه)، فهي مجلبة للمحبة، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو النبي المؤيد بوحي الله كان يقبل الهدية ويثيب عليها، وهذا هو الكمال أن يقبل الإنسان الهدية، ثم يثيب عليها.

وقوله: (وأمر القول نطقي بلعل) المراد بذلك أن الإنسان إذا رغب إليه في حاجة أو طلب منه شيء ولن يستطيع إنفاذه أو القيام به أخذ يسوف.

توزيع الأرزاق واختلاف دنيا الناس

قال المصنف رحمه الله:

[ملك كسرى تغني عنه كسرة وعن البحر اجتزاء بالوشل

اعتبر نحن قسمنا بينهم تلقه حقاً وبالحق نزل

ليس ما يحوي الفتى من عزمه لا ولا ما فات يوماً بالكسل

اطرح الدنيا فمن عاداتها تخفض العالي وتعلي من سفل

عيشة الزاهد في تحصيلها عيشة الجاهد فيها أو أقل

كم جهول وهو مثر مكثر وعليل مات منها بالعلل

كم شجاعٍ لم ينل منها المنى وجبانٍ نال غايات الأمل]

لزوم القناعة وترك الطمع

قوله: (ملك كسرى تغني عنه كسرة) أي: ينبغي للإنسان ألا يطمع في الدنيا، وأن ينظر في باب الدنيا لمن هو دونه، ولا ينظر لمن هو أعلى منه، وما دام الإنسان في هذه الدنيا والدنيا ظل زائل ينبغي أن يتزود بالقليل.

وهنا قال: إن ملك كسرى ذلك العظيم الذي بلغت مثاقيله المكاييل من الذهب والفضة وغير ذلك تغني عنه الكسرة التي يتزود بها الإنسان، فلا تنقص من عمر تلك الكسرة، ولا تزيد في عمر كسرى أملاكه، ولكن يغني عن ذلك القليل، وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن الدنيا ظل زائل، فينبغي للمرء أن يتقلل منها.

وقد مثل هنا فقال: (وعن البحر اجتزاء بالوشل) أي: أن الإنسان إذا أراد الكفاية والغنية فيكتفي بالمطر، والوشل هو قطرات المطر التي لا تنهمر بكثرة، فهي التي يستغني بها الإنسان عن ذلك البحر المتلاطم الأمواج، وصحيح أنه كثير ويغني الإنسان غناء تاماً، لكن في ذلك كفاية، فما الذي يزيد صاحب البحر عن كفاية صاحب المطر.

الاعتبار في قسمة الله للأرزاق

وقوله: (اعتبر نحن قسمنا بينهم تلقه حقاً وبالحق نزل) المراد بذلك قس من هذا إلى هذا، وهذا هو الاعتبار، يقول الله عز وجل في كتابه العظيم: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:2]، أي: تدبروا وتأملوا، وخذوا من هذا إلى هذا، وقيسوا الأحكام.

وقوله: (اعتبر) أي: يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف:32]، فالله عز وجل قسم بين الناس الأخلاق وقسم بينهم الأرزاق، يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (إن الله قسم بين الناس أخلاقهم كما قسم بينهم أرزاقهم)، وابن آدم ليس له إلا ما كتب له، فلا يطعم غيره طعامه، ولا يطعم طعام غيره، ولا يكتسي بكساء غيره، ولا يكتسي غيره بكسائه، فلا بد أن يأتيه، وإن كان في جوف البحر يخرجه الله سبحانه وتعالى، ولو كان طعامه في صخرة صمّاء لا باب لها ولا كوة إلا أخرجها الله عز وجل له كائناً ما كانت، وأذهبها إليه، ويأتي رزق الإنسان من أقاصي الدنيا حتى يأتي إلى فمه، يكتبه الله عز وجل للإنسان، ولا يمكن أن يخرج من فيه شيء ليس لغيره.

الأخذ بالأسباب في تحصيل الأرزاق

قوله: (ليس ما يحوي الفتى من عزمه لا ولا ما فات يوماً بالكسل) أي: أن ما يجمعه الإنسان من متاع الدنيا ولذائذها وما يحصل له من تكسب ونحو ذلك فليس ذلك بعزم منه، ولكنه مما قسمه الله عز وجل له، وهذا لا ينافي الأخذ بالأسباب، فالله سبحانه وتعالى قد أمر بالأخذ بالأسباب، وجعل للإنسان مشيئة بعد مشيئته سبحانه وتعالى، يقول جل وعلا: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان:30]، فما يجب على المرء أن يعتقد أن ما يحوي من نصيب الدنيا ولذائذها ليس هو من عزمه واجتهاده المحض، بل هو سبب جعله الله عز وجل للإنسان أخذ به، فرزقه الله عز وجل ذلك الرزق.

مدح العمل وحكم تركه

وما فات من متاع الدنيا ولذائذها، لا ينبغي أن يتحسر عليه بسبب الكسل، وإن كان الأصل أن الإنسان ينبغي أن يسعى ويعمل. وقد امتدح الله عز وجل العاملين، وقد اختلف العلماء عليهم رحمة الله تعالى في حكم العمل، هل الإنسان إذا كان مقتدراً على العمل، ولم يعمل واكتفى بنفقة غيره هل يأثم بذلك أم لا؟ على قولين:

فذهب الجمهور إلى أن عمله مستحب، وذهب قلة من العلماء وهو مروي عن الصحابة عليهم رضوان الله تعالى إلى الوجوب، والصواب أنه على الاستحباب، ويروى في الخبر كما عند الطبراني والمسند (أن النبي عليه الصلاة والسلام دخل المسجد ووجد رجلاً فيه فقال: أنت تعمل؟ قال: لا، أخي يكفيني. قال: أخوك خير منك)، مع أنه باقٍ في المسجد، لكن العمل هو الأولى، أي: أن يكد الإنسان ويكدح، وينبغي للإنسان أن يأخذ بالأسباب وأن يدخر رزقه، والنبي عليه الصلاة والسلام –كما في صحيح مسلم – كان يدخر قوت سنة، وهو من هو عليه الصلاة والسلام في الإيمان، فهو نبي من أنبياء الله عز وجل، ومؤيد بوحي الله سبحانه وتعالى، لكنه يعلم أمته مواضع الخير والأخذ بالأسباب، وليس هذا قنوطاً من رزق الله عز وجل، وعدم اعتبار، ولكنه أخذ بالأسباب، فهو يدخر رزق أهله سنة.

الحذر من الدنيا وتقلباتها

قوله: (اطرح الدنيا فمن عاداتها تخفض العالي وتعلي من سفل) إنما تسمى الدنيا دنيا لدناءتها، وقيل: تسمى دنيا؛ لأن ما بعدها هو البعث والنشور، ويسمى الآخرة، فهي لا تعترف بنسب ولا بحسب، ولا بجاه، وإنما تأخذ الإنسان على غرة، وفي كثير من النصوص، سواء في الشرع أو في كلام العرب ينسب إلى الدنيا أنها فعلت وفعلت ونحو ذلك، وهذا كله من أقدار الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى لا يعطي الدنيا من أحب فحسب، ولكن يعطيها من أحب ومن لم يحب، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء)، أي: أن هذه الدنيا لا تعادل عند الله سبحانه وتعالى جناح بعوضة، ولذلك يعطي منها الكافر والمؤمن، فيقسم لهذا ويقسم لهذا، ويعطي هذا خيراً وهذا خيراً، أما الآخرة فلا يعطي الله عز وجل إلا من أحبه، وهي العاقبة.

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام كما في الخبر: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)، وقد سئل بعض أهل المعرفة عن معنى قوله: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكفر)، وما في جاء في آيات كثيرة من أن المؤمن كلما ازداد إيماناً شرح الله قلبه، وما يقع فيه

من الطمأنينة، وانشراح الصدر، وما يحصل للكافر كذلك في هذه الدنيا من ضيق وحرج كأنما يصعد في السماء، وما يحصل كذلك من نكد وإعراض عن ذكر الله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:124]، إلى غير ذلك، كيف الجمع بين هذا وهذا؟ فيقال: إن الدنيا سجن للمؤمن بالنسبة لنعيم الآخرة، وأما بالنسبة للكافر فهي نعيم بالنسبة لعذاب الآخرة.

المقارنة بين عيشة الزاهد والمجاهد في الدنيا

قوله: (عيشة الزاهد في تحصيلها عيشة الجاهد فيها أو أقل) أي: أن الإنسان إن اجتهد في هذه الدنيا أو سعى في كسبها فلن يعدو رزقه، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عباس : (اعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك)، فما جاءك من رزق اعلم أنه رزقك، وما أخطأك من رزق وقد سعيت إليه وطلبته، وذهب إلى غيرك شراباً سائغاً ولم يسع إليه فاعلم أنه ليس لك، وأن الله عز وجل قسمه لغيرك.

حكمة الله في تقسيم الأرزاق بين الأغبياء والأذكياء

قوله: (كم جهول وهو مثر مكثر وعليل مات منها بالعلل) أي: كم من رجل جهيل مجهول، وجاهل في طرق التكسب والسعي في الدنيا ونحو ذلك، وفيه من السذاجة والبساطة، إلا أن الله عز وجل رزقه من الثراء والمال والنعيم في هذه الدنيا، وهو لا يحسن جمع مال، بل لا يحسن رعاية أهله، وكم من الناس من أذكياء الدنيا ما رزقهم الله سبحانه وتعالى كما رزق ذلك، ولذلك لا ينبغي للإنسان أن يعتدي وأن ينظر لماذا رزق الله عز وجل فلاناً ولم يرزقني كما رزق بعض البسطاء.

وأذكر أنه في عام من الأعوام، وقد كنت في أحد جبال عرفة، وكان بجواري أحد الشاميين، وكان يرفع يديه ويدعو، وفهمت من دعائه أنه مهندس، فيقول: يا رب! أنا مهندس وقد بلغت من العلم كذا وكذا، وأنك أعطيت جاري الصعلوك بيتاً، وأعطيته مزرعة ولم تعطني، فلمَ يا رب؟ فتناولته وقلت له: إن الله عز وجل أمر بالأخذ بالأسباب، ولكن هذا المهندس غلب عليه أن جعل تلك الأسباب هي في المقام الأول، وهذا هو ما يظنه كثير من الناس، وهذا ينافي العبودية لله سبحانه وتعالى، قد ينافي كمالها، وقد ينافيها بالكلية، فإذا علق الأمر بالأسباب وجعلها التي تعطي وتضر وتنفع، وهذا يخالف ما هو مشاهد ملموس، ويخالف نصوص الشرع، فلا يحاسب الإنسان ربه، فالله عز وجل لا يسأل عما يفعل، والعباد هم الذين يسألون.

اختلاف الأقدار بين الشجاع والجبان

قوله: (كم شجاعٍ لم ينل فيها المنى وجبانٍ نال غايات الأمل) الشجاعة لا تعني أن الإنسان يحصل مراده بقوته وسطوته فيغلب غيره، فكم من جبان غلب القوي بسبب التوفيق، وكم من جبان قتل شجاعاً، فليست الشجاعة هي كل شيء، وكم من الناس من يأتي إلى ساحات المعارك وجبهات القتال سنوات عديدة، ثم يموت على فراشه بعد عقود طويلة، ومن الناس من يخرج إلى غزوة واحدة ويموت.

إذاً العبرة ليست في السبب المجرد أن الله عز وجل يكتب على الإنسان ذلك الأمر، و خالد بن الوليد عليه رضوان الله تعالى،

وهو سيف الله المسلول، ما ترك غزوة بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام إلا وهو في مقدمتها، فلما حضرته الوفاة على فراشه قال: (لقد طلبت الموت، فما من موضع في جسمي إلا وفيه ضربة بسهم أو طعنة برمح، وهأنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء)، فمات على فراشه؛ لأن الله عز وجل كتب له وقدر عليه الموت على ذلك الفراش، فمهما تصنع ومهما تسعى لأن تقتل، فالله عز وجل ما كتب عليك ذلك، فالمنية تأتي الإنسان كما قدر الله عز وجل عليه.

ترك الحيل والتهرب من أقدار الله

قال المصنف رحمه الله:

[فاترك الحيلة فيها واتئد إنما الحيلة في ترك الحيل]

أي: أن الحيلة الحقيقية التي ينبغي على الإنسان هي ألا يتهرب من قدر الله عز وجل بزعمه، لكنه يأخذ بالأسباب المجردة، ويجعل الأصل هو قضاء الله عز وجل وقدره، وأن الله عز وجل إن كتب على الإنسان شيئاً فهو آتيه. وكثير من الناس من يسعى إلى الحيل والتخلص من بعض ما هو في الظاهر محكوم عليه ونحو ذلك، وهذا قد يكون فيه معارضة لقضاء الله وقدره، وهذا ينافي إيمان العبد.

الحث على النفقة والعطاء

قال المصنف رحمه الله:

[أي كف لم تفد مما تفد فرماها الله منها بالشلل]

المراد بذلك: أي يد لا تنفق مما كسبت وأعطاها الله عز وجل من ذلك الرزق الذي لا صلة للإنسان به، وإنما هو من قدر الله سبحانه وتعالى وقضائه، فبعد أن بين أن هناك من هو جهول وفيه من الغباء والسذاجة وعدم معرفة السعي في الرزق ومع ذلك يرزقه الله عز وجل من متاع الدنيا ولذائذها، وقد تجد ممن هو من أذكى الناس ومع ذلك لا يعطيه الله عز وجل من الدنيا إلا يسيراً، فأي كف أفادها الله عز وجل من ذلك النعيم فلم تنفق رماها الله بالشلل، وأمسك عليه يده، وهذا فيه إشارة لقول النبي عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح: (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا وملكان ينزلان يقولان: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً)، ومعلوم أن الصدقة والنفقة تزيد في مال العبد، وإن أمسك فإن الله عز وجل يمسك عليه، ولذلك تسمى الزكاة زكاة لأنها تزكو بمال الإنسان فتزيده، ولا تنقص مال الإنسان.

أصل الإنسان وفصله

قال المصنف رحمه الله:

[لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

قد يسود المرء من غير أبٍ وبحسن السبك قد ينسى الزغل

وكذا الورد من الشوك وما ينبت النرجس إلا من بصل

مع أني أحمد الله على نسبي إذ بأبي بكر اتصل

قيمة الإنسان ما يحسنه أكثر الإنسان منه أو أقل].

أصل الإنسان هو ما تفرع عنه، وفصله ما تفرع عنه، فالأصل أبو الإنسان، والفصل هم أبناؤه، وذلك لانفصالهم عنه، والأصل هو ما تفرع عنه، والفرع ينبني على الأصل.

سيادة المرء من غير نسب

قوله: (قد يسود المرء من غير أبٍ) هنا نستحضر قصة يوسف عليه السلام، فقد رماه إخوته في البئر، فكان أشبه بمن لا أب له، فحمل وبيع، وحصل له من الابتلاء في السجن حتى أصبح ملك مصر وعزيزها، ثم جاءه أبوه بعد ذلك، فهل نفعه أبوه؟ نعم أبوه كان بعيداً عنه، وقد كان يدعو له، ولكن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى، ولذلك قد يسود الإنسان من غير أب، من غير نسب، من غير حسب، أو بلا معين إلا من الله سبحانه وتعالى.

وقد يوضع الإنسان وهو متمكن النسب فلا ينفعه نسبه ذلك، وممن أعرض عن النبي عليه الصلاة والسلام وأعرض عن دعوته فلم ينفعهم ذلك، وكبهم الله عز وجل في النار، أبو لهب عم النبي عليه الصلاة والسلام، و أبو جهل و أبو طالب وغيرهم من كفار قريش.

قوله: (وكذا الورد من الشوك وما يطلع النرجس إلا من بصل) هذه كلها من الأمثلة التي يريد بها المصنف عليه رحمة الله تعالى أن يقرب بها المعنى، فقد يخرج من بعض الأشواك ورد وزهور، وقد يخرج من البصل وهو سيئ الرائحة خبيثها كما وصف النبي عليه الصلاة والسلام: (من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين)، فيخرج منها ورد طيب الرائحة، ويسمى النرجس.

قوله: (مع أني أحمد الله على نسبي إذ بأبي بكر اتصل) المصنف هنا يبين أنه بكري، وأنه لم يتنازل عن ذلك، من باب أنه ليس

بنسيب أو أنه وضيع ونحو ذلك، بل نسبه من أعرق الأنساب فهو بأبي بكر يتصل، ومع ذلك فإنه يقطع أن ذلك لا يغنيه من الله شيئاً.

قيمة الإنسان الحقيقية

قوله: (قيمة الإنسان ما يحسنه أكثر الإنسان منه أو أقل) أي: أن الإنسان بعلمه كما تقدم، ولذلك قيمة الإنسان ما يحسن صنعه وما يحسن عمله، فإن قل إحسانه قلت قيمته، وإن عظمت قيمته في ذلك عظمت قيمته في هذا الأمر، وهذا يدل على ما تقدم من كلام المصنف عليه رحمة الله تعالى أن قيمة الإنسان بعلمه ومعرفته، فيزاد بذلك ويرفع، وينقص بذلك ويوضع.

كتم الإنسان لحاله من الفقر والغنى

قال المصنف رحمه الله:

[اكتم الأمرين فقراً وغنى واكسب الفلس وحاسب من بطل]

أي: اكتم الأمرين الفقر والغنى، ولا تحدث بهما، فإن كنت فقيراً فاصبر واحتسب إلا إن احتجت وأصابتك فاقة، فلا حرج عليك أن تسأل كما جاء الترخيص في ذلك، وإلا فاكتم، ومما يحسن أن يكتمه الإنسان من حاله ما جمعها الشاعر في قوله:

احفظ لسانك لا تبح بثلاثة سن ومال ما استطعت ومذهب

فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة بمعكر وبحاسد ومكذب

والشاهد هنا وهو شاهد لكلام المصنف قول الشاعر: (ومال) فإما أن تبتلى بحاسد، وإما أن تبلى بمن يتنقصك بذلك المال، كأن يقول: إنه مجحف لا ينفق على بنيه مما لديه من مال، وإما أن يقال: إن فلاناً يتكبر ويتزيا بزي الأغنياء وهو فقير، وقلما أحد من الناس إلا وهو لا يوازن بين ماله وحاله، وهذا معلوم مشاهد.

الدعوة للعمل وترك الحمقى

قال المصنف رحمه الله:

[وادرع جداً وكداً واجتنب صحبة الحمقى وأرباب الخلل]

تقدم أن الله عز وجل هو الذي يقسم الأرزاق بين العباد، فلا يظن من كلامه ذلك أن على الإنسان أن يتعطل، فلا يجد ولا يكد، بل ينبغي له أن يدرع جداً وكداً، ويجتنب صحبة الحمقى وأرباب الخلل، أي: الذين لا يحسنون العمل، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم بعمله بنفسه، فيخسف نعله، ويغسل إناءه، كما جاء في الخبر المشهور.

التوسط في النفقة بين التبذير والبخل

قال المصنف رحمه الله:

[بين تبذير وبخل رتبة فكلا هذين إن زاد قتل]

المراد بذلك هو التوسط، وخير الأمور أوسطها، وقد يزيد كرم الإنسان ويصل إلى درجة التبذير والإسراف، والله عز وجل قد نهى عن ذلك بقوله: ﴿ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام:141]، والإسراف هو أن يضع الإنسان المال بغير موضعه من غير حاجة.

أما في باب الصدقة، فهل يدخل الإسراف أن الإنسان ينفق من ماله ما استطاع من غير حد؟

يقال: إن الصدقة إن أنفق الإنسان منها لله سبحانه وتعالى يتقبلها الله عز وجل منه، لكن ينبغي للإنسان ألا يدع أبناءه عالة، ولذلك سعد بن أبي وقاص عليه رضوان الله تعالى لما حضرته الوفاة، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (يا رسول الله! إني كما ترى، ولا يرثني إلا ابنة لي، سأتصدق بثلثي مالي. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: لا. فقال: بشطر مالي؟ قال: كثير. فقال: بثلث مالي؟ قال: الثلث والثلث كثير، إنك إن تدع أبناءك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس)، وقد ذكر عن بعض السلف أنه قال: (لأن ألقى الله سبحانه وتعالى وأخلف مالاً خير من أن ألقى الله عز وجل وقد تركت أبنائي عالة).

فينبغي للإنسان أن يتوسط ويعتدل في ذلك كله، سواءً في باب الدنيا أو في باب النفقة والصدقة، وهذا حمله بعض العلماء على الإنسان في آخر حياته أو حضره الموت، أو ترقب حضوره، كأن يكون به مرض مخوف كحال سعد بن أبي وقاص وغيره.

وأما إذا كان الإنسان في حال نشاطه وقوته وتكسبه فلا حرج عليه أن ينفق ماله كله، كما فعل أبو بكر الصديقعليه رضوان الله تعالى، وكذلك عثمان بن عفان ، لما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (ما تركت لأولادك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله)، وقد أنفق نصف ماله عليه رضوان الله تعالى.

ترك الكلام في السابقين

قال المصنف رحمه الله:

[لا تخض في سب سادات مضوا إنهم ليسوا بأهل للزلل]

أي: أن تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم، ولا ينبغي للإنسان أن ينشغل بأحداث مضت، بل ينشغل بأحداثه، فالله عز وجل لا يسأله عما مضى، مما فعلت الأمم والشعوب، ف﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة:134]، لهم أعمالهم التي عملوها، ويلقون الله عز وجل عليها، ولكم أعمالكم التي تلقون الله عز وجل بها، وتحاسبون

عليها.

التحلي بخلق التغافل

قال المصنف رحمه الله:

[وتغافل عن أمور إنه لم يفز بالحمد إلا من غفل]

التغافل خصلة محمودة من خصال المؤمن، والنبي عليه الصلاة والسلام وصف المؤمن فقال: (المؤمن غر كريم)، أي: أنه لا يخدع، لكنه يتغافل، ولا يتتبع الأمور، ولكنه يتغافل عنها، و(من تتبع عورات الناس تتبع الله عورته)، ومع ذلك من تتبع أمور الناس وأحوالهم يزداد هماً، فإنه كثير التفكير بما حدث لفلان وفلان، ويسأل: لم حدث لفلان وفلانة ونحو ذلك، ويتتبع أحوال الناس، بل ينبغي للإنسان أن يتغافل، وإن أوذي فإنه يتغافل أيضاً كأنه لم يسمع.

والإنسان إن تتبع الدقيق والجليل فإنه يمل ويضجر وينشغل ويضيق صدره بذلك، والنبي عليه الصلاة والسلام كان كريماً في هذا الباب، ويتغافل عن أذية تلحق به، ولا يتتبع أحداً.

ومن هذا أن يكون الإنسان صاحب غفلة فيشتغل في ماله ونحو ذلك؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما كانت تأتيه أفواج الناس وقبائل العرب، كان يقول: من القوم، من فلان وبم أتيت، ونحو ذلك، وقد جاء في سنن الترمذيأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (إذا لقي أحدكم أخاه فليسأله من هو وممن هو)، والمراد من ذلك أن يسأله حتى يعرف حاله من أي جهة كان؛ حتى يحتاط لنفسه إن كان صاحب خير فيعطيه مكانته، وصاحب رفعة فيعطيه منزلته، وإن كان صاحب منزلة وضيعة أو صاحب خسة ونحو ذلك فيتقي شره.

والنبي عليه الصلاة والسلام كان يتقي شرور الناس، وقد جاء في الصحيح (أن النبي عليه الصلاة والسلام استأذن عليه رجل فقيل له: فلان عند الباب، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: بئس أخو العشيرة، فلما أذن له النبي عليه الصلاة والسلام، ودخل الرجل هش في وجهه وبش، فقالت عائشة للنبي عليه الصلاة والسلام في ذلك، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: إن شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه)، أي: كأنه لم يعهد منه أذية ولم يؤذه، وأنه ليس بصاحب فحش، بل بش في وجهه وهش، وتعامل معه على الرحب، وكأنه لم يلق منه أذية، وإنما إشار النبي عليه الصلاة والسلام إلى أذيته في نفسه، وهذه من خصال المؤمن التي فيها مجلبة للمودة وتآلف الناس، فليس كل ما يعلمه الإنسان يقوله، وكل ما يراه يتحدث به، وفي الحديث: (كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع).

التعامل مع الأعداء

قال المصنف رحمه الله:

[ليس يخلو المرء من ضد ولو حاول العزلة في رأس جبل]

الإنسان لا بد له من أعداء، وبقدر عقله بقدر ما يكون له أعداء.

يقول ابن حزم الأندلسي في كتابه تهذيب النفوس ويسمى مداواة النفوس: (ما من أحد من الناس إلا وله أعداء بقدر عقله، ومن رام حياة بلا أعداء، فإنه يرم مستحيلاً، ولم أر أحداً من الناس ليس له أعداء إلا المجانين)، فالمجنون فقط الذي ليس له أعداء؛ لأنه لا يملك عقلاً.

ولذلك ترى المجنون في الشارع هل له عدو؟ إنما يتخبط يمنة ويسرة، والكل يرحمه حتى أحقد الناس، وأشد الناس عداء وحسداً لكل صاحب نعمة ليس بعدو لهذا المجنون، بل أنهم يرحمونه، وربما حملوه وأنفقوا عليه؛ لأنه ليس بصاحب عقل، وكلما زاد عقله وأصبح لديه عقل بقدر ما تكون العداوة له عند الناس.

والنبي عليه الصلاة والسلام كان له أعداء وخصوم، فبقدر قوة عقل الإنسان وتمكنه ودرايته بقدر ما يكون له أعداء، وبقدر ما يضعف عقله بقدر ما يوده الناس، ويظنون أنه من البسطاء ونحو ذلك.

التحذير من النمام

قال المصنف رحمه الله:

[غب عن النمام واهجره فما بلغ المكروه إلا من نقل]

أي: ابتعد عن النمام الذي يتحدث في أعراض الناس، والذي ينقل الكلام من هذا إلى هذا، فيقول: يا فلان! قد قال فيك فلان كذا وكذا، وهذا من كبائر الذنوب، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول كما في الصحيحين وغيرهما: (لا يدخل الجنة قتات)، والمراد بالقتات هو النمام، ونقلك للكلام من شخص إلى آخر هو من كبائر الذنوب، والنبي عليه الصلاة والسلام أخبر في الحديث المعروف، قال: (رأيت فيمن يعذب في النار أناساً يخدشون وجوههم)، وأشد من ذلك من ينم بين الناس بما لم يحصل أصلاً، فيقول: فلان قال، وفلان كذا وهو لم يقل، يقول الشاعر:

لي حيلة فيمن ينـ م وليس في الكذاب حيلة

من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليلة

والنمام الذي ينقل الكلام يجب أن يردع ويزجر، ومن كان يخلق ما يقول ويبتكر الكلام فهذا كذاب، والكذب لا يخرج من الإنسان إلا بخبث طوية، وسوء نية، ولا يمكن أن يتمكن الإنسان من الكذب إلا وقد تمكن منه النفاق والعياذ بالله.

الصبر على الجار السيئ

قال المصنف رحمه الله:

[دار جار السوء بالصبر وإن لم تجد صبراً فما أحلى النقل]

أي: يجب عليك أن تتحلى بالصبر على الجوار، لما جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام من حق الجار، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: (لا يزال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)، أي: يجعله من الورثة ومن ضمن الأبناء، فإن مات جار ورثه جاره لما له من المكانة.

والجيران ثلاثة: جار له ثلاثة حقوق، وجار له حقان، وجار له حق واحد، فالجار الذي له ثلاثة حقوق هو الجار المسلم القريب، فله حق الجوار وحق الإسلام وحق القرابة، والجار الذي له حقان هو الجار الذي له حق الجوار وحق القرابة إذا كان كافراً، والجار الذي له حق واحد هو الجار الذي ليس بمسلم وليس بصاحب قرابة.

وقوله: (وإن لم تجد صبراً فما أحلى النقل) أي: إذا لم تجد صبراً على أذيته إن آذاك فإن الأولى لك أن تنتقل عنه ولا تؤذيه.

والنبي عليه الصلاة والسلام جعل أهل الجوار أمناء على عورات جيرانهم، وإن بدا منهم الأذية ما بدا، وحينما سئل عليه الصلاة والسلام: (ما أعظم الذنب؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك)، لماذا؟ لأنه ائتمنك وسكن بجوارك. فالزنا من البعيدة أهون من الزنا من القريبة؛ لأنك أتيته على غرة، ولم يكن يخطر في باله أن الأذية والفتنة تأتي من جاره، ولذلك كلما أمن الإنسان صاحبه كان الإثم من جهته أعظم؛ لأنك قد أتيته في حال غرة وثقة بك، والشارع حينما عظم حق الجار وجعل ما فيه وما له من حق وأمان جعل كذلك في المقابل أن التعدي عليه أعظم من التعدي على غيره.

الدخول على السلاطين

قال المصنف رحمه الله:

[جانب السلطان واحذر بطشه لا تخاصم من إذا قال فعل]

قوله: (جانب السلطان) أي: لا تدخل عليه من غير حاجة وضرورة، فإن النبي عليه الصلاة والسلام قد أخبر في السنن والمسند: (من دخل على السلطان افتتن، ومن تتبع الصيد غفل)، فمن دخل على السلطان فإنه يفتتن في دينه لما يرى من بهارج الدنيا وجمالها وحسنها ونحو ذلك مما يصرفه عن الانشغال بطاعة الله سبحانه وتعالى.

قوله: (واحذر بطشه) أي: لا تتعرض لمحاربته من غير حاجة ونحو ذلك، فإن هذا منقصة للإنسان أن يعادي من إذا قال فعل؛ لأنه لا يخشى إلا الله سبحانه وتعالى، هذا إن كان يخشى الله.

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن من العقل ألا تعادي صاحب سلطان؛ لأنه يرفع ويضع، ويقرب إليه من شاء في هذه الدنيا، ويبعد من شاء بعد إذن الله سبحانه وتعالى.

الابتعاد عن الولايات والقضاء

قال المصنف رحمه الله:

[لا تل الحكم وإن هم سألوا رغبة فيك وخالف من عدل

إن نصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام هذا إن عدل

فهو كالمحبوس عن لذاته وكلا كفيه في الحشر تغل

إن للنقص والاستثقال في لفظة القاضي لوعظاً ومثل

لا توازي لذة الحكم بما ذاقه الشخص إذا الشخص انعزل

فالولايات وإن طابت لمن ذاقها فالسم في ذاك العسل

نصب المنصب أوهى جسدي وعنائي من مداراة السفل

قصر الآمال في الدنيا تفز فدليل العقل تقصير الأمل

إن من يطلبه الموت على غرة منه جدير بالوجل]

عظم الأمانة بعظم المسئولية

قوله: (لا تل الحكم) فيه تحذير من القرب من المناصب والرئاسة ونحو ذلك، والنبي عليه الصلاة والسلام قال محذراً منها: (إنكم لتحرصون على الإمارة، وإنها لحسرة وندامة يوم القيامة)، وذلك لأن الإنسان لا يستطيع القيام بعبء نفسه وأمانته التي في عنقه، فالله عز وجل قد جعل في عنق الإنسان أمانة، إما من ذريته وإما من نفسه، فكل شيء وديعة أودعه الله عز وجل

جسده وعقله، وصحته وعافيته، وهو مسئول عن ذلك كله، فكيف يتحمل أمور الناس.

ومن نظر إلى سير الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم كعمر بن عبد العزيز وجد أن هؤلاء الأئمة عليهم رحمة الله تعالى قد علموا أهمية تلك المسئولية العظمى التي جعلها الله عز وجل في أعناقهم، فانشغلوا بالعدل بين الناس، وانصرفوا عن لذائذ الدنيا ومتعها.

موقف الإنسان عندما يطلب منه تحمل مسئولية ما

قوله: (وإن هم سألوا رغبة فيك) أي: وإن طلب منك ذلك، والنبي عليه الصلاة والسلام قد حذر أصحابه من الولاية والإمارة، وأذن فيها لبعضهم، وحذر بعضهم؛ لأنه لا يستطيع، فقال: (لا تل الإمارة، ولا تتول على مال يتيم)؛ لأنه قد علم فيه ضعفاً، أما إذا طلب من الإنسان تحمل هذه المسئولية، وأتى غيره ممن هو أفسد منه، فإن كان فيه فساد، أو من هو فيه شر ولم يأت إلى هذا المكان إلا فلان بن فلان، أو أنت وفيك خير، فإنه لا حرج من هذا الباب، ولكن لا يتسع هذا الأمر لدى الإنسان، فيجعله باباً متسعاً تدخل منه الذمم، ومن يقول: إنه لولا أنت لجاء فلان، أو لو لم تأت أنت لجاء فلان، وهذا كل إنسان يستطيع أن يقوله على مر العصور والدهور، بل حتى إبليس يقول: لولا موسوس الناس لجاء من هو عفريت وأشر مني، لكن أنا أترك هناك من يؤمن وهناك من يكفر، إذاً هذه العبارة الكل يستطيع أن يقولها، فلا بد للإنسان أن يراقب ربه سبحانه وتعالى في هذا الأمر، ويجعل من نفسه خصيماً له.

معاداة الناس لمن ولي أحكامهم

قوله: (إن نصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام) وذلك أن أمور الحكام، وما هم فيه من أحوال لا تظهر للناس، فقد يكون لديهم من الأعذار ما لا يعلمه الرعية والمحكومين، ونفوس الحكام مبنية على الأنفة والعزة والكبر ونحو ذلك، وقد يكون لديهم من الأعذار ما لا يبديه للناس، ويظن الناس أن لديهم، لكنهم لا يعطونهم، ويمسكون عنهم.

وقوله: (هذا إن عدل) أي: هذا إن كان عادلاً، أما إذا كان ظالماً فالكل عدوه، وهذا معلوم عند من ولي الأحكام سواءً في باب القضاء أو في باب السلطات العليا.

حال من ولي أمر الناس

قوله: (فهو كالمحبوس عن لذاته) أي: أنه لا يستطيع أن يسعى بين الناس في الطرقات، ويذهب حيثما يشاء ويجيء، فكل عمل محسوب عليه حيث يراه الناس، وأنت إذا رأيت الوالي والحاكم والقاضي تجده لا يستطيع أن يقضي حاجته بنفسه، أو يتلذذ بذلك، فإن الإنسان لديه رغبة بأن يكون حراً في قوله وفعله وذهابه ومجيئه، لكنه يبقى محبوساً عن لذاته تلك.

قوله: (وكلا كفيه في الحشر تغل) هذا يشير إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام: (ما من رجل يلي أمر ثلاثة فما فوق إلا جاء يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه، فكه بره أو أوبقه إثمه)، هذا في أمر ثلاثة فما فوق، يأتي يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه فكه

بره أو أوبقه إثمه عياذاً بالله.

قوله: (إن للنقص والاستثقال في لفظة القاضي لوعظاً ومثل) أي: أن الإنسان صاحب السلطة والسلطان والمكانة الرفيعة ينعم بلذة ومكانة، لكن تلك اللذة لا توازي حرمانه من تلك اللذات، فهو محسوب بقوله وفعله، وكذلك فإنه يستثقل أن ينصح ويوعظ، وهذا مجبول عليه الكبار والسلاطين، فإنهم يأنفون من ذلك، وتترضى نفوسهم عن ذلك.

وأضف إلى ذلك أن ثمة أمراً أشد من ذلك، قال: (بما ذاقه الشخص إذا الشخص انعزل)، فإذا كان الشخص صاحب سلطان ثم انعزل عن ذلك، فإنه يلقى من الألم والحسرة التي تمحو ما وجده من لذة تلك النعمة، حتى لو قيل له: لو تمنيت أنك لم تتول ذلك المنصب بعد عزلك منه لتمنى ذلك، والمناصب لا تدوم لأهلها، يقول الشاعر:

إن المناصب لا تدوم لأهلها إن كنت في شك فأين الأول

أي: أين من سبقك؟ قد ذهب وانعزل، إما بوفاة، أو عزله ممن هو أقوى منه، وما يقع من حسرة في قلب الإنسان من ذلك يتمنى أنه لم يحصل له من ذلك شيء أصلاً.

وقوله: (فالولايات وإن طابت لمن ذاقها فالسم في ذاك العسل) الولايات جمع ولاية، وهي التي يتولاها الإنسان سواءً كانت ولاية كبرى أو ولاية صغرى، وإن كانت لذيذة فيها رفعة ونحو ذلك، (فالسم في ذاك العسل) أي: في حال عزله كما أشار إلى ذلك المصنف عليه رحمة الله، أو ما يحوله من لذائذه من عدم حريته في ذهابه ومجيئه ونحو ذلك.

وقوله: (نصب المنصب أوهى جسدي وعنائي من مداراة السفل) وذلك أنه مشغول ومهموم بأمور الناس، وقد جاء أحد أصحاب عمر بن عبد العزيز عليه رضوان الله تعالى إليه بعد أن ولي الخلافة بثلاثة أيام، فوجده قد نحل جسمه بسبب هموم الناس، فقال له عمر : (كيف لو رأيتني في قبري بعد ثلاثة أيام).

تقصير الإنسان للأمل

قال المصنف رحمه الله:

[قصر الآمال في الدنيا تفز فدليل العقل تقصير الأمل]

الأمل لا ينبغي للإنسان أن يزيله من حياته، فلولا الأمل ما عاش الناس، لكنه هنا يقول: قصر الأمر لا تجعله طويلاً، أي: اجعل لك أملاً تعيش به وتحيا به وترجو شيئاً من الحياة ولذائذها، لكن لا تجعل الأمل طويلاً، فلو لم يكن في هذه الدنيا أمل للناس ما عاشوا، وإلا لما كان لديهم في عقولهم إلا تذكر الماضي وآلامه، وكفى بذلك حسرة.

الوجل عند تذكر الموت

قال المصنف رحمه الله:

[إن من يطلبه الموت على غرة منه جدير بالوجل]

الموت يطلب الإنسان ويتبعه، ويتخطاه هذه المرة إلى غيره، ويأتي مرة أخرى ويتخطى غيره إليه، فإذا كان الإنسان يعلم أن الموت سيأتيه، لكنه لا يعلم في أي لحظة، فالواجب عليه أن يخاف منه ويوجل، كالإنسان الذي يطلبه غريم أو طالب، أو يتوعد بقتل ولا يعلم متى يأتيه، فذلك الذي سيقتله الأولى أن يكون وجلاً في كل حاله لا في ساعة من تلك الساعات، ولكن الإنسان لنعمة النسيان والغفلة جعل الله عز وجل له من ذلك نعمة، فيوجل الإنسان من ذلك الطالب والغريم وينسى تذكر الموت.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بأمر نبيه عليه الصلاة والسلام تذكر الموت والأخذ بأسبابه، والنبي عليه الصلاة والسلام قال: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنها تذكركم بالآخرة، وتذكر بالموت، وتزهد في الدنيا)، وينبغي للمرء أن يتذكر الموت، وإن نسيه فإنه يجعل له ما يذكره فيه من زيارة المقابر، أو تذكر الأمم السابقة وأحوالها حتى يتذكر الأجل المحسوم، والحساب الذي ينتظره يوم القيامة.

من آداب الزيارة

قال المصنف رحمه الله:

[غب وزر غباً تزد حباً فمن أكثر الترداد أضناه الملل]

أي: لا ينبغي أن تثقل في الزيارة والذهاب والمجيء إلى الناس، حتى يملوك، وقد جاء في الخبر مرفوعاً: (زر غباً تزدد حباً)، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يحث أصحابه على ذلك، وقد جاء هذا عن النبي عليه الصلاة والسلام من حديث أبي هريرة في سنن أبي داود وغيرها.

وقوله: (وزر غباً تزد حباً) المراد بالغب هو يوم بعد يوم، فيكون لك يوم غياب ثم حضور، فلا تداوم بالذهاب والمجيء، وجاء في المسند: (نهى رسول الله ﷺ أن يمتشط أحدنا إلا غباً)، أي: يوماً بعد يوم حتى لا يكثر الإنسان من التنعم ويتشبه بالنساء، ويغلب عليه طبائع النساء.

وقوله: (فمن أكثر الترداد أضناه الملل) أي: أن في إكثار الترداد على الناس تنقص هيبته، وينبغي أن يبتعد، فكلما ابتعد عن الناس عظم قدره وشأنه عندهم، وأجلوه، وكلما خالط الناس فإنه يفتقد شخصه حتى ينقص قدره.

الاهتمام بإصلاح القلب

قال المصنف رحمه الله:

[خذ بنصل السيف واترك غمده واعتبر فضل الفتى دون الحلل]

وذلك أن العبرة بالجوهر، فينبغي للإنسان أن يعتد بصلاح قلبه، ولا يعتد بتزيين الظاهر، فإنه إن صلح باطن الإنسان صلح ظاهره، ولا يمكن للإنسان أن يجمل ظاهره، وأن يفسد ظاهره ويقول: إن باطني صالح كظاهري، هذا لا يمكن أن يكون أبداً.

والمراد أن الإنسان ينبغي أن تظهر عليه من علامات الخير والطاعة لكي يعلم ما في قلبه من خير وطاعة، وهذا كما أنه معلوم في الشرع فهو معلوم في الطبع، فلا يمكن أن تأتي إلى شجرة ميتة، ويقول صاحبها: إنه يسقيها كل يوم، هذا لا يمكن أن يعقل، أو تقول: إن عروقها حية. لا، بل هي ميتة؛ لأنها لا يمكن أن تكون حية، ولا يمكن أن تأتي إلى شجرة مورقة خضراء، ويقول صاحبها: إنه لا يسقيها ولا يأتيها بالماء إما من ينابيع الأرض أو نحو ذلك، بل لا بد أن تتغذى بشيء يظهر عليها في الظاهر، ولذلك شبه المصنف إصلاح القلب باعتداد الإنسان بالسيف وحده فإن الغمد لا ينفع، وإنما هو من باب التحسين، وعند الجد والحاجة لا يحتاج الإنسان إلى غمده، وأما الظواهر فإنها لا تنفع الإنسان عند العزم والحاجة.

حب الإنسان لوطنه

قال المصنف رحمه الله:

[حبك الأوطان عجز ظاهر فاغترب تلق عن الأهل بدل

فبمكث الماء يبقى آسناً وسرى البدر به البدر اكتمل]

حب الوطن هو الأرض التي يعيش فيها الإنسان، وهو مفطور عليه بالطبع، وجاء الشرع بتقرير ذلك، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أن الإنسان يقاتل عن بلده وأرضه أياً كان، وذلك بسبب إبعاده عن شيء ألفه، كما قال الله عز وجل: ﴿ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ﴾ [البقرة:246]، فقاتلوا لماذا؟ لأنهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم، والله عز وجل امتحن الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم الذين قال لهم: ((اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ)) [النساء: 66]، لكنهم لم يخضعوا لذلك؛ لأن قلوبهم معلقة بذلك، فأحبوا الديار أكثر من الإسلام، والعبرة بالإسلام هو الأصل، وأما حب الإنسان لبلده فإنه لا يلام بذلك، لكنه لا يقدمها على ما أمر الله عز وجل بحبه وتقديمه.

والإنسان مجبول على حب موطنه الأول، يقول الشاعر:

كمن منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه دوماً لأول منزل

وقوله: (فمكث الماء يبقى آسناً وسرى البدر به البدر اكتمل) كأن هذا القول منتزع من كلام الشافعي عليه رحمة الله تعالى في ديوانه بقوله:

سافر تجد عوضاً عمن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش بالنصب

إني رأيت وقوف الماء يفسده إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب

وقد تقدم الإشارة إلى هذا المعنى.

- **كيفية تعامل المصنف مع من يرد نصائحه وطيب كلامه**

قال المصنف رحمه الله:

[أيها العائب قولي عبثاً إن طيب الورد مؤذٍ بالجعل

عد عن أسهم لفظي واستتر لا يصيبنك سهم من ثعل

لا يغرنك لين من فتى إن للحيات ليناً يعتزل

أنا مثل الماء سهل سائغ ومتى سخن آذى وقتل

أنا كالخيزور صعب كسره وهو لدن كيفما شئت انفتل]

قوله: (أيها العائب قولي عبثاً) المراد بذلك ممن ينتقدني، وينتقد قولي من غير تدبر، وهمه النقد والعيب والكلام، ولا يؤثر عنه مدح لأحد، وإنما هو كبعض الحشرات التي لا تقع إلا على الأوساخ كالذباب وغيرها.

وهذا الكلام من المصنف كلام شديد منه عليه رحمة الله، أي: أنك لذمك ذلك أشبه بالجعلان، وهي دواب تمشي على الأرض، وتتأذى من رائحة الورد، وقد ذكر الدميري في كتابه الحيوان عن الجعلان أنه من شواذ الحشرات، وأنها تتأذى بالورد وتطيب وتحيا بالأوساخ، فإن لم تجد أوساخاً فإنها تموت وتحيا على تلك الأوساخ، وتموت لو أعطيت طيباً أو ورداً.

قوله: (عد عن أسهم لفظي واستتر لا يصيبنك سهم من ثعل) أي: أن تلك الأبيات التي يتكلم بها أشبه بالسهام في الكنانة، فلا تتصدى لنقدي فإني سأهجوك بكلام يؤذيك، ويصيبك في مقت.

قوله: (لا يغرنك لين من فتى) أي: لا ترى كما تقدم من كلامي أني صاحب تربية ولين وسلوك ونحو ذلك، إنني إن تعدى عليّ شخص بأذية وسب وقدح، فإنني سأكون ليناً معه، كلا، فإني سآخذ حقي منه منصفاً، (فإن للحيات ليناً يعتزل) فمع أنها لينة إلا أن الناس يبتعدون منها.

وقوله: (أنا مثل الماء سهل سائغ) أي: إن أردت أن تستفيد مما أعطيك فأنا كالماء تحيا به، فقد جعل الله عز وجل من الماء كل شيء حي، وإن أردت أن تشرب مني فإني سأعطيك سائغاً ماء يرويك، ومتى سخن الماء يؤذيك، أي: إذا أغضبت، والغضب في لغة العرب هو غليان دم القلب للانتقام ممن أثار الإنسان، (ومتى سخن آذى وقتل) يؤذي الإنسان أو يقتله.

وقوله: (أنا كالخيزور صعب كسره) المراد بالخيزور هو أعواد الخيزران، لا تكسر وتلوى إذا كانت رطبة لينة، لا تكسر فيستفيد منه الإنسان على أية حال، إن أراد أن يثنيها أو يلويها ونحو ذلك، لينة أينما أبداها، ولا يستطيع أحد أن يكسرها إذا كانت رطبة طرية.

نظرة الناس لصاحب المال

قال المصنف رحمه الله:

[غير أني في زمان من يكن فيه ذا مال هو المولى الأجل

واجب عند الورى إكرامه وقليل المال فيهم يستقل]

يشير في هذا البيت إلى أنه ليس بصاحب مال، وهذه هي المنقصة في أعين بعض الناس، والناس يميلون لصاحب المال، وفي ذلك يقول الشاعر:

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال

رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب

أي: أن الناس يميلون إلى صاحب المال، وإن كان وضيعاً، أو سيئ الخلق، إلا أنه يشير بأنه صاحب مال يسعى إليه، وهذا معلوم مشاهد، وكأن المصنف عليه رحمة الله يشير هنا أن مع ذلك كله أنه كالماء لمن أراد أن يشرب منه، وكالخيزران اللين الذي لا يكسر، لكن يستفيد منه الإنسان، لكنه ليس بصاحب مال.

وقوله: (واجب عند الورى إكرامه وقليل المال فيهم يستقل) وهذا معلوم مشاهد، فمن كان قليل المال فإن الناس تعرفه، ويميلون عنه وينصرفون عنه؛ لأنهم لا يرون فيه خيراً أو غنى أو حاجة لدنياهم، وهذا من المؤسف.

ذم ابن الوردي لعصره

قال المصنف رحمه الله:

[كل أهل العصر غمر وأنا منهم فاترك تفاصيل الجمل]

ختم المصنف منظومته بمذمة أهل عصره بأنه قد كثر فيهم الجهل والفساد، فقال: (كل العصر غمر)، والمراد بالغمر هنا الجهل والغباء والحمق، والبعد عن الخير، ونحو ذلك.

وأراد بقوله: (وأنا منهم) أي: أنا من ضمن هؤلاء، فهو يشير إلى ما أشار إليه الله عز وجل في مواضع كثيرة من كتابه: ((وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)) [المائدة: 103]، ((وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)) [هود: 17]، وكأنه لغلبة ذلك في ذلك العصر حتى إنه لم يقل: إلا شيئاً قليلاً من أهل الخير، بل عمم على كل الناس، وأدرج نفسه معهم، وهو صاحب فضل وعلم، بل لا يظن به سوءاً، ويرتكب المخالفة الواردة في قول النبي عليه الصلاة والسلام: (من قال: هلك الناس فهو أهلكهم، ومن قال: فسد الناس فهو أفسدهم)، أي: أنه لا ينبغي للإنسان أن يقول: هلك الناس كلهم، ففيهم الخير وفيهم الصلاح وفيهم الاستقامة وفيهم الديانة، وجعل نفسه منهم لغلبة الفساد في ذلك الوقت.

وقوله: (فاترك تفاصيل الجمل) أي: ليس عليك أن تبحث عن مواطن الفساد وتتبعها، فإنها مظاهر جلية، ولعله يخاطب وضعاً بعينه، وإلا فالأمة فيها خير من أولها إلى آخرها، و(لا يزال في هذه الأمة أمة باقية ظاهرة على أمر الله، لا يضرها من خذلها ولا من خالفها حتى يأتي أمر الله).

والحمد لله على ما أتم به من شرح أبيات هذه المنظومة فيما يحسن للإنسان التزامه من آداب وأخلاق، وصلى الله وسلم على مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

الأسئلة

الواجب لدخول المكلف دائرة الإيمان

السؤال: ما هو العمل الواجب لدخول المكلف دائرة الإيمان؟

الجواب: المؤمن إذا أراد، أو الكافر إذا أراد أن يدخل الإيمان، فإنه يدخل بالتصديق بالقلب والقول باللسان من غير عمل، فإذا شهد أن لا إله إلا الله ومات بعدها فلا يقال: لا بد من عمل، وهذا هو الفرق الوحيد، وأركان الإيمان هي العمل والاعتقاد والقول، لكنه إن مكن من العمل ولم يعمل فإنه لا يتحقق له الإيمان.

وما هو العمل الذي يدخل الإنسان، هل لو صدق ونطق وعمل بأحد أركان الإسلام كافٍ لدخوله في الدين؟

نعم إذا عمل شيئاً من أركان الإسلام بما اختصت به شريعة محمد ﷺ، لكن لا بد أن يؤمن بالجميع.

شراء ما يسمى بالبيرة

السؤال: وجدت في بعض الفتاوى القول بحرمة شراء البيرة الموجودة حالياً، فما حكم ذلك؟

الجواب: أنا لا علم لي بمكونات البيرة، إلا أن الأصل فيها الإباحة، ومن علم أن ثمة شيئاً محرماً فيها أو إضافة شيء من مادة الخنزير ونحو ذلك، فهذا يبين ويثبت الدليل فيه، وما عدا ذلك فالأصل فيها الإباحة.

دعوى وجود أغاني إسلامية

السؤال: يوجد أشرطة (كاسيت) تسمى بالأغاني الإسلامية، فما حكم ذلك؟

الجواب: لا يوجد أغانٍ إسلامية، وإذا كان يقصد بذلك الأناشيد، فإذا وجد ما يطرب ويخرج اللفظ عن معناه إلى الإطراب والتغني، ويدخل في ذلك ضمناً آلة الموسيقى واللهو والطرب، فهذا غناء محرم بالاتفاق، والله أعلم.